
جودت جالي
خيمة منفردة
قصة بدوية
ضفاف
جودت جالي خيمة منفردة قصة بدوية اصدار دار ضفاف للنشر
لم يعد عالم البادية موجودا كما رأيته منذ زمن بعيد، إلا أن القصة نفسها، التي هي بمثابة تحية الى عالم غاب، ليست استنساخا لسيرة حياة أناس عاشوا في ذلك العالم، ولا هي قصة ذات صبغة فولكلورية، إنها كسرة من الصراع الوجودي الذي كانوا يخوضونه ممثلا بفترة محددة من حياة عائلة، أو على الأصح نهاية عائلة. كل الأحداث والشخصيات متخيلة، والأسماء هي لضرورات فنية ولا علاقة لها بشخصيات واقعية. إن واحدة من أهم خصائص الوجود البشري في البادية هي اللهجة ولكني فضلت أن يكون الحوار بالفصحى لكي تكون قراءة القصة ميسرة لكل قارئ بالعربية، فاللهجة البدوية هي أيضا عدة لهجات وهذه إشكالية أحببت تجاوزها، ما عدا بضع مفردات "بدوية" في السرد أوضحت معناها.
ضفاف
DEFAF
دار ضفاف للنشر
الشارقة بغداد
٢٠٢٢
9 789922 939339
بيت الكتاب السومري

خيمة منفردة

٨١٣/٩٢

ج ٢٨٩ جالي، جودت

خيمة منفردة: قصة بدوية جودت جالي

بغداد – دار ضفاف للنشر ٢٠٢٢

(١٦٣) ، ٢١ سم

١- القصص العربية ، العراق أ- العنوان

م. و

٢٠٢٢/ ٣٨٨

المكتبة الوطنية/ الفهرسة اثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٨٨) لسنة ٢٠٢٢

جودت جالي

خيمة منفردة

قصة بدوية

الكتاب: خيمة منفردة

المؤلف : جودت جالي

الصنف: قصة

الطبعة الأولى ٢٠٢٢ – حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



الناشر: دار ضفاف للطباعة والنشر والتوزيع

basimalyasiri100@gmail.com

الإدارة: الدكتور باسم الياسري

- قطر: الدوحة ٠٠٩٧٤-٥٥٨٩٨١٨٦

- العراق – بغداد ٠٠٩٦٤٧٧٣٨٠١٠٧٠٢

- تركيا - ٠٠٩٠٥٣٧٢٤٣٣٢٩٩

- الإمارات العربية المتحدة: الشارقة ص. ب: ٤٢٩٣

- تصميم الغلاف: دار ضفاف للنشر
- وكيلنا مكتبة الضياء/ نوري السلطاني ج: ٠٧٩٠١٨٧٠١١٧

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٣٨٨ لسنة ٢٠٢٢

تسلسل الكتاب في الدار: ٣٦٦

لم يعد عالم البادية موجودا كما رأيته منذ زمن بعيد، إلا أن القصة نفسها، التي هي بمثابة تحية الى عالم غاب، ليست استنساخا لسيرة حياة أناس عاشوا في ذلك العالم، ولا هي قصة ذات صبغة فولكلورية، إنها كسرة من الصراع الوجودي الذي كانوا يخوضونه ممثلا بفترة محددة من حياة عائلة، أو على الأصح نهاية عائلة. كل الأحداث والشخصيات متخيلة، والأسماء هي لضرورات فنية ولا علاقة لها بشخصيات واقعية. إن واحدة من أهم خصائص الوجود البشري في البادية هي اللهجة ولكني فضلت أن يكون الحوار بالفصحى لكي تكون قراءة القصة ميسرة لكل قارئ بالعربية، فاللهجة البدوية هي أيضا عدة لهجات وهذه إشكالية أحببت تجاوزها، ما عدا بضع مفردات "بدوية" في السرد أوضحت معناها.



١

راقب شداد ابنته الصغرى ليرة تمضي بالإبل باتجاه الوديان القريبة من قلعة الأخيضر وهي راكبة على الأم الكبيرة (الحيزة). ما أن ابتعدت حتى أصبح من الصعب عليه أن يميزها، وما لبثت أن اختفت هي والقطيع في المدى الشاسع أمام عينيه الكابيتين اللتين صارتا في الآونة الأخيرة تفرزان دمعا وقذى لا ينقطعان فيضطر بين الحين والحين، لكي يرى بوضوح، الى مسحهما بمنديل قطني أزرق كبير مؤطر بخط أبيض اشتراه لهذه الغاية من سوق (المحاويل) عندما كان وعائلته في طريقهم الى هنا.

تلمس تحت البساط باحثا عن مسدسه الذي لا يملك سلاحا ناريا غيره للدفاع عن نفسه وعن عائلته وماله، فقد قايض بندقيته المِبْرَنْوْ القصيرة مع شقيقه الأصغر مقابل عنز وجَدْي شاميين إذ أن البندقية، منذ أن ضعف بصره ولم يعد قادرا على التصويب البعيد، صارت بلا فائدة له واكتفى بالمسدس صغير الحجم سهل الحمل والإخفاء.

وجد المسدس فوضعه في جيب داخلي ببطانة الفروة خاطته له زوجته ضحوة ليضعه فيه. أعاد لمها حول جسده المرتعش ارتعاشا

لذيذا من برد أول الصبح وهو جالس على البساط الصوفي وأمامه الطاس الذي شرب منه للتو من حليب ناقته (القودة) وأكل الرغيف الحار الذي أعدته له ضحوة على الصاج المحمي بالجمر. القى بعض الماء الدافئ من الإبريق النحاسي على وجهه ومسحه بالمنديل. نظر الى ابنته لمعة وهي تخرج من بيت الشَّعْر بعد أن أكملت وأمها تناول الإفطار لتذهب بالماعز الى أرض معشبة قريبة.

قال مخاطبا ضحوة:

-يستحسن أن نتفقد مجرى الوِنِي[1] ونعمقه حيث طمره الماعز لئلا يدخل علينا ماء المطر إذا أمطرت.

ثم أضاف متمثلا:

-الذي لا يُوَنِّي يغرق. ألم تسمعي بهذا المثل؟

لا يسمح شداد للمعة برعي الإبل منذ أن أصبحت مكتملة الأنوثة لا يأمن عليها أن تكون بعيدة عن البيت[2] بين رعاة يتحرقون شوقا للمس امرأة، وكان هو في تلك الأيام يشعر بخمول في جسمه فلم يخرج بالإبل. أما ليرة بجسمها الطفولي بالغ الهزال فإنها لا تثير

---

[1] - الوِنِي هو مجرى للماء يحفره البدوي حول بيت الشَعر لينزل فيه ماء المطر المنحدر من البيت فيأخذه الوني بعيدا.

[2] - البيت المقصود هو بيت الشَعر نفسه، يعني الخيمة ولكن البدو يقولون بيت بكل بساطة.

في أكثر الرعاة ابتذالا غير العطف والشفقة بعكس لمعة الجميلة، فارعة الطول، ممتلئة الجسد، كما أن ليرة ستجد هناك صبايا في سنها من بيوت قريبة الى المكان الذي ترعى فيه يرعين الماعز فتقضي معهن الوقت بألعاب لا تلهيهن عن المراقبة.

حين طلبت منه ضحوة قبل أسبوع أن ينزل مع البيوت قرب المرعى رفض:

-هل تريدينني أن أنزل وسط البيوت يا ضحوة؟ لم يبق إلا أن يقال عني جبان.

حاولت أن توضح له وجهة نظرها:

- يا أبا صبر..

خاطبته بهذه الكنية التي يحبها والتي تكنّى بها وهو أعزب قبل أن يتزوجها ويولد لهما أول ولد سماه بهذا الاسم ولكنه مات وهو لا يزال طفلا رضيعا. مع ذلك بقي كلما سأله أحد عن كنيته قال له "أنا أبو صبر"...

-.... لقد كبرت وضعف بصرك ومن الصعب علينا في هذه الحالة أن نتقي شر اللصوص أو الضواري... كما...

صمتت هنيهة تفكر في كلمات تقولها له تكون أكثر وقعا في نفسه، وأضافت:

-كما أن لدينا ثلاث بنات ولم يعش لنا معهن ولد. واحدة تزوجت وبقيت اثنتان ومن الخير أن نحافظ عليهما بالنزول مع الناس.

نظر اليها نظرة توبيخ وهو يرد عليها بصوته الأجش:

-وهذا سبب آخر يجعلني أنزل منزلي هذا. هل تريدين أن أنزل بين البيوت فتختلط بنتاي بالشباب الأغراب؟

لم تجادله أكثر. لكنه، وهو يصغي الى صيحات رعاة تتناهى اليه من الخيام المتناثرة على مبعدة، أخذ يفكر مليا بما قالته له وإن كان يحرص أن لا يعترف لها صراحة بأن ما قالته يستحق الأخذ بنظر الاعتبار.

توجهت الى حيث الأواني المليئة بالحليب ووقفت عندها تفكر ماذا تفعل بكل هذا الكم من حليب الإبل. لا يمكن أن يُصنع من حليب الإبل الجبن ولا اللبن الخاثر. يمكنها فقط أن تضعه في الشكوة ليبقى الى الغد فتستخرج منه الزبد بعد خضه. لكنه أكثر مما يحتاجون. أخذت قِدرا مليئا بالحليب وسكبته كله في ميلغ كبير

ليشرب منه الكلبان. سمعت شداد يسأل قبل أن ينهض وهو يحبس أنفاسه:

-هل أخذت معها ماء؟

عرفت ضحوة أنه يقصد ليرة فالتفتت الى حيث تعلق عادةً الصميل[3]، فرأته لا يزال في مكانه. قالت مبتسمة:

-لم تأخذه اليوم أيضا. تشرب الماء من صويحباتها إذا عطشت.

-هذه البنت تستعجل الذهاب الى المرعى لتلعب.

-لماذا تصر على أن تملأ الصميل ماء وتأخذه معها، وهناك توجد بيوت قريبة وإذا اضطرت ففي بطن وادي الأُبّيض في هذا الوقت من السنة بمجرد أن تزيل طبقة من الرمل جانبا بيدها ينبجس الماء؟

-لا أريدها أن تطلب ماء من أحد، وفي حال كانت بعيدة عن المورد لا تضطر الى ترك الأباعر...

ثم أضاف وهو يمد بصره الكليل بالاتجاه الذي ذهبت فيه ليرة:

-الأباعر الآن تبحث عن طعامها السنوي من الرغل والطرطيع لحوضته... لا يبدو أن هذا المرعى فيه الكثير منهما....

ثم وجه كلامه الى ضحوة:

[3] - الصميل هو الجود الصغير، الشكوة الصغيرة، تملأ بماء الشرب عادة.

-قد يتوجب علينا بعد أيام أن نعد علفا لها من جريش الشعير، وليس لدينا ما يكفي منه، أفكر في أن نرتحل الى (المسيب).

-لكننا لا نرتحل الى هناك ولا نترك البادية كل سنة إلا مع موسم الحصاد وجني التمر. لا زال الوقت مبكرا والعشب في البادية متوفر والحمد لله... لقد نمت على أرضها هذه السنة حتى شجيرات.

-أعرف ناحية هناك فيها نبات وفير وربما وجدنا من لديه علف للبيع رخيص.

أخذ يتمشى ليبث بعض النشاط في جسده تحت أشعة شمس الصباح التي تشرق من أفق سماء صافية الزرقة خالية من الغيوم بعد أن تلبدت في الليل وهبت الريح التي تسبق المطر عادة ولكنها لم تمطر وانكشف الغيم وصفت السماء مع الفجر. دار حول الخيمة وهو ينظر الى الوِني مضيقا فتحتي عينيه. حمل بيده عصا يتوكأ عليها هي أقرب الى الهراوة وقد ارتدى نعليه اللذين يصنعهما بنفسه كلما دعت الحاجة بقطعتين من جلد البعير بعد أن أزعجه البحث عن حذاء أو نعل على مقاس قدميه الكبيرتين في الأسواق التي لا يصادف ذهابه اليها إلا نادرا. تجول حول البيت، ووقف بطوله الفارع مواجها النسمات الغربية تهب على وجهه وتبث برودة مثلجة في أصابعه،

ناظرا الى حيث الأرض أكثر ارتفاعا ثم تنحدر فيما بعد على مسيرة يوم باتجاه وديان الطار.

جلست هي تشغل نفسها بملء الشكوات الثلاث بالحليب وهي تشدو بصوت واطئ:

- يا علةٍ ببداني

ما قلتها لكل داني

لا أميمتي اليابتني

ولا لبوي الرباني [٤]

متمثلة بهذه الأبيات تعبيرا عن آلامها وآلامه، ثم تنهدت وتلفتت حولها لترى الى أين توجه. لقد عرفته شجاعا وهو مبعث فخرها منذ أول يوم لزواجهما، قبل سنوات لم تحص عددها، عندما أهداها أبوها له مكافأة على بوادر منه أعجبته. كانت عشيرتها نازلة، وهي في طريقها الى نواحي عرعر، في ديرة عشيرة شداد وكان أبوها نايف هو الشيخ، وصادف أن التبغ لديه قليل لا يكفي لضيوفه وجلسائه، ولم يكن الحصول عليه سهلا تلك الأيام، والمدينة بعيدة، وليس من

---

[٤] - يا علةٍ ببداني (يا علةً في بدني)
ما قلتها لكل داني (ما قلتها لكل قريب)
لا أميمتي اليابتني (لا لأمي التي ولدتني)
ولا لبوي الرباني (ولا لأبي الذي رباني)

أحد يمكنه أن يحل المشكلة سوى البائع المتجول الذي يدور في الأرياف ويمر من هناك كل شهر أو شهرين حاملا بضاعته على حمار أو حصان. كيسه الشخصي فيه بعض التبغ ولكن كيف يخرجه أمام الحاضرين، وقد لا يكفيهم جميعا حتى لو قدمه لهم. كان شداد حاضرا، وفهم، فقام وخرج وعاد بعد ساعات بكيس كبير من التبغ قدمه للشيخ بطريقة ذكية مدعيا أمام من علم بالأمر أنه هدية من شيخ عشيرته. لا أحد يعرف كيف حصل على هذه الكمية من التبغ وليس واردا، وفقا للتقاليد، أن يسأله أحد. هل سلبها من متعهد بنقل بضاعة على الشارع العام البعيد أم يعرف وجودها في مكان ما أم هي أصلا عنده؟ الجواب ليس مهما عند الشيخ نايف بقدر ما كان مهما أن كمية كبيرة من التبغ توفرت لديه. عرف أن لهذا الشاب عقلا حصيفا من سلوكه وطريقة تقديمه التبغ له، وبعد أن فكر مليا في ليلته قال له في اليوم التالي:

-جاءتك ابنتي زوجة لك.

وهكذا أصبحت بهذه الكلمات زوجته. ربما كان أبوها، وهذا ما خطر على بالها لأول وهلة، يريد التخلص منها لأنها شابة مليئة بالحيوية كثيرة الجدل ومحبة للتعرف على العالم من حولها، وهذا النوع

من الفتيات مثار ريبة الأهل ومخاوفهم يخشون أن تلحق بهم العار وهم عائلة شيوخ توارثوا المشيخة من قديم الزمان. لم ينفع معها التوبيخ ولا الضرب، وكلما كبرت كبرت معها مشكلتها، ولعل أباها رآها الفرصة السانحة ليدفعها الى رجل فيضرب عدة عصافير بحجر واحد، يتخلص منها بطريقة لائقة محمودة ويكسب أنسباء له في هذه العشيرة التي أكرمته وأظهر له أحد أبنائها النباهة والكياسة ثم بادر فأهداه كيس تبغ في وقت عز فيه التبغ وغلا ثمنه. لعله أيضا فكر على عادة الرجال في النظر في أمور النساء بأن ابنته ما أن يملكها رجل ويدخل بها فتبيت تلك الليلة في أحضانه حتى تكون في اليوم التالي امرأة أخرى كل حياتها ذلك الرجل الذي امتلكها ولا يعود يشغل بالها شيء غيره، وفي حالتها كان على حق، فقد وجدت رجلها الذي تتمناه بفحولته وشجاعته وحكمته، وإن لم يقضيا حياتهما معا بصفاء تام إذ كان طبعها يميل بها الى جداله ومعاندته. أحيانا تقول في نفسها أن ليرة أقرب بناتها اليها مزاجا وأشبه بها جسما وشكلا، ولكن ابنتها عيدة المتزوجة من ابن عمتها في ناحية جنوب بغداد هي نسختها الثانية في الجرأة وكم من مرة تتشاجر مع زوجها، والسبب الدائم لأكثر مشاجراتهما هو أنها لا تنجب وفيما يصمها هو بأنها عاقر

تنكر هي وتتهمه بالمثل ولا يعدمان أسبابا أخرى كل مرة، فتتركه وتتبع وحدها آثار أهلها حتى تصل اليهم وهم في منزل من المنازل التي تعرفها وتعرف في أي وقت من أوقات السنة ينزلون في كل منها، وتبقى عند أهلها حتى يأتي هو جالبا لها معه شيئا من سوق المدينة، بعض الملابس أو الزينة الحضرية، ليرضيها فتعود معه إذ بعد كل شيء هي ابنة خاله وهو ابن عمتها. لكن غيبتها طالت هذه المرة فقد مضى على آخر مرة جاءت فيها اليهم سنة وأكثر وأملت ضحوة أن تكون قد أصبحت وزوجها متفاهمين أخيرا وعلى وئام.

تساءلت قبل يومين عن سبب تأخر عيدة عليهم فسمعها شداد الذي كان منطرحا على ظهره يتشمس من جهة صريمة الحطب[٥] فوق البساط المصنوع من شعر الماعز وقد رفع رجله اليمنى ووضعها فوق رجله اليسرى تأسيا بالرسول الكريم كما سمع من ملّا ذات مرة أنه يفعل هكذا. سمع تساؤل ضحوة وكان يفصل بينهما الرواق فالتفت ناحيتها مبتسما:

-بماذا ذكرتينا؟ خليها بعيدة لا تأتي لنا بمصيبة!

[٥] - الصريمة والصيرة: الصريمة كوم الحطب المعد لإشعال النار، والصيرة هي الحطب الموضوع بشكل دائري فيكون كالساحة المسيجة يدخلون فيه الضأن وصغار الأباعر وربما كبارها أيضا للحفاظ عليها ليلا.

ضحكت وضحكت معها البنتان لأنهن تذكرن ما فعلته قبل أربع سنوات.

كان شداد يتوق لأن يرزق بولد ذكر لكي يساعده عندما يذهب بصره وقوته كليا ويكون لإبنه هذه الإبل والماعز فلا يرثها أخوته عند وفاته، وتحرم منها ضحوة وبناته، ناهيك عن أن الولد يبقى سندا وملاذاً لشقيقاته عند الضيم. هو يعرف كم هي عزيزة منزلة الأخ عند المرأة المتزوجة خصوصا إذا كانت متزوجة في عشيرة غريبة أو بعيدة، ولطالما سمع ضحوة وهي تترنم بنغمة الحداء وبصوت خافت بكلمات مثل:

سمعت ضحك بالمقبره

وزلام يدفنون بمره

لَن الزلام مسخّرة [٦]

وهو نفسه يأخذه الحنين أحيانا، فيردد أيضا بعض ما تقوله النساء:

دفان دفنك ما عجبني

وتراب مسحاتك لهبني

---

[٦] - سمعت ضحك بالمقبره(المعنى واضح)
وزلام يدفنون بمره (ورجال يدفنون امرأة)
لن الزلام مسخّره (فإذا بالرجال مسخرين) إشارة الى أنهم ليسوا من أهلها فيضحكون أثناء دفنها يعني لا يهمهم أو يحزنهم موتها.

وأريد دفن أخوي وإبني[٧]

دلته ابنته عيدة في إحدى زياراتها لهم، وكانوا نازلين جنوب بغداد، على امرأة مناسبة من عشيرة زوجها «ينجب منها قدر ما يشاء من الذكور»، كما قالت. سألها:

-وما أدراك أنها ستنجب ذكورا.. وقدر ما أشاء يا عيدة؟

أطرقت رأسها والتفتت مليا وهي على إطراقها يمينا، ثم يسارا، على عادتها منذ أن كانت صبية حين يزعجها شيء وتتهيأ لرد مناسب وهو ينظر اليها مبتسما فمنذ طفولتها لم تستطع التخلص من هذه الحركات التي لا تزعجه بل تُضحكه وتلطف مزاجه. رفعت سبابتها ناظرة الى أبيها نظرة كلها جد وعتاب:

-وحياتك يبَهْ... تزوجت ثلاث مرات وفي كل مرة تنجب ذكرين أو ثلاثة!

اتسعت عيناه وارتفع حاجباه دهشة:

-هجم رأسك... هل هذه معزى؟

ثم انتبه الى المهم في الأمر:

---

٧ - دفان دفنك ما عجبني (لم يعجبني دفنك يا دفان)
وتراب مسحاتك لهبني (وتراب مجرفتك أحرقني، للتعبير عن عدم ارتياحها لأن يدفنها هو)
وأريد دفن أخوي وإبني. (تريد أن يدفنها أخوها وإبنها)

-وكيف تريدينني أن أتزوج امرأة زُوجت وطُلّقت ثلاث مرات؟ ثم ما هو سبب طلاقها ثلاث مرات؟

ضيقت عيدة عينيها ورفعت يديها قريبا من وجهها وهي تهزهما باتجاه أبيها كأنها تتأسف لأن نفاذ بصيرته خانه هذه المرة:

-وما ضرك يا أبي كم تزوجت وكم تطلقت؟ ألست تريد الولد؟ هذه أم ولد! علاوة على ذلك هي من عائلة فقيرة وسيسر أهلها بتزويجها ويعطونها لك في الحال.

نظر الى ما وراء عيدة نظرة تأمل:

-يا بنيتي... المثل يقول صيت الأرملة ولا صيت المطلقة.

نهضت كالمستاءة:

-وهل ننتظر الى حين نجد أرملة ولاّدة؟ أنت وما تشاء يا أبي.. ما لي أنا؟

وذهبت الى حيث كانت لمعة جالسة على كثيب خلف البيت تراقب الماعز.

لكن شداد فكر آنذاك جديا في الأمر. صحته في هبوط وبصره تأخذه غشاوة خفيفة بين الحين والحين ولابد له من أن يحزم أمره.

نادى على ضحوة التي أخبرتها ابنتها مسبقا بالأمر طبعا فجاءت وجلست أمامه على كيس طحين فارغ:

-ما رأيك بما قالت ابنتنا؟

أطرقت رأسها حائرة، فهي تشارك شداد همومه، ولها همومها الخاصة أيضا، لأنها لا تريد غدا أن تحرم من نعمة الأمان في ظل أولاد ذكور، ولو من رحم غيرها، خيراً من أن تجد نفسها بعد سنوات مضطرة للعيش في بيت أحد أزواج بناتها إذا ما قدر الله عليها أن يمتد بها العمر بعد وفاة شداد.

-أذهبُ معها وأرى إذا رغبتَ.

وافق شداد وذهبت ضحوة مع ابنتها الى حيث يسكن أهل المرأة على مسير ساعة ومن هناك انصرفت عيدة الى بيتها وعادت ضحوة وحدها عصرا. نظر اليها شداد متفحصا وهي تحل العباءة السوداء التي تحزمت بها خلال الطريق وأعادت اليه الخنجر الذي أخذته منه تحوّطاً برغم أنه لم يكن محتملا تعرضها لإعتداء وهي تسير في طرق تخترق مناطق لا تخلو من حركة الناس.

تربعت على الحصير الذي يوضع عليه الجود الكبير حين يُملأ ويراد خضه. اقتربت البنتان أيضا وجلستا، واحدة عن يمينها وواحدة عن

يسارها، وقد أثارتهما فكرة أن البيت سيضم امرأة أخرى تنجب لهما أخوة، وبالنسبة لهما، لا مانع حتى لو أنجبت أناثا. لم يسألها شداد بل ظل يدير سيجارته اللف بين السبابة والإبهام ولا ينظر اليها مباشرة. كان غير مرتاح، أو محرجا بالأحرى، منها ومن نفسه، ربما لأنه قد كبر على أشياء يراها تناسب أناسا أصغر منه عمرا، أو أنه يشعر بالتغيير الكبير القادم الذي سيحدث في بيته بقدوم زوجة ثانية. هو يدرك تماما، بعكس كثير من أبناء جيله وبيئته أن الزواج ليس لعبة تحت السيطرة دائما، ربما ينطوي على متاعب غير متوقعة فتكون حينئذ سيطرة الرجل على المرأة ليست هي التي تحسم الأمور. سمع صوت ضحوة يأتيه من خلال غلالة أفكاره:

- اسمها كيفة. رأيتها ولا بأس بشكلها وحسب ما قالته لي نساؤهم فإن أهلها سيسرون بتزويجها لك ولكن....

عندها حدجها بنظرة هي الى القلق المفاجئ أقرب منه الى الفضول. تمتمت أول مرة تحت ضغط نظرته. تعرف أن ما ستقوله لا يعجبه ولكنها مع ذلك قالت:

-أليس من الأفضل أن تعقد نيتك على البحث عن أخرى أصغر منها عمرا؟ أرى أن هذه قد تزوجت كثيرا و..

لاحظ شداد ابتسامتها، كان فيها ظل سخرية لا يعرف كنهها، لم يسألها ما معناها ورجح أنها من بعض ما يخطر في بال المرأة اتجاه إحدى بنات جنسها من استخفاف أو محاولة للتقليل من شأنها، فبعد كل شيء إن ضحوة كأي امرأة، لا يهم كم عمرها، ولا يهم أكانت الزوجة الثانية باختيارها أو مفروضة عليها فهي في النهاية ستكون ضرتها ولا بد أن تتحرك في أعماقها غيرة أو شيء من هذا القبيل. هكذا فكر وهو يلقي بعيدا بعقب سيجارته كما لو كان ينبذ معه ما قالت للتو:

-إيه يا ضحوة... كلهن نساء إذا كنت تقصدين بكلامك الذي يحصل بين المرأة والرجل. أنا أريد الولد.

أصبح شداد في شيخوخته رجلا مبرادا، وقد يقضي، في الشتاء خصوصا، أسابيع دون اغتسال فإذا ألحت عليه ضحوة قال بغضب "ما لك تلحين؟ هل بال علي الكلب لأغتسل؟ كفيني شركِ!"، وكل ما يفعله عند الضرورة، وبمزاجه وليس بطلب من أحد، أن يأمر بتدفئة ماء ويغسل يديه ووجهه ويمسح على رأسه ورقبته ونحره ويغسل رجليه حد الركبة، وقد كان يوما مشهودا ذلك اليوم الذي سبق ذهابه الى أهل كيفة، وانتصارا أيضا لضحوة التي خاضت معه

جدالا غير مرة خلال الأسبوع الماضي ولكنه ما أن قالت له هذه المرة "ماؤك جاهز" حتى نهض بهمة غير معتادة منه جعلت ضحوة تنظر اليه نظرة ذات معنى وتبتسم وهي تسير الى جانبه حاملة ملابسه النظيفة والمنشفة نحو ركن في الخيمة حيث وضعت الطشت والماء والشنان.

٢

في اليوم نفسه وصله من أهل المرأة كلام مفاده أنهم يرحبون به ولا حاجة أن يكلف نفسه عناء اصطحاب الكثير من الرجال عندما يقصدهم. ذهب اليهم مصطحبا معه اثنين من جيرانه وقد ارتديا، مثله، أفضل ما عندهما من ثياب وتسلحا ببندقيتين احتراما لأهل المرأة وأخذ أحدهما معه مهرا لتركب العروس عليه. وجد زوج ابنته عيدة قد سبقه الى هناك. عندما جلسوا في المضيف أوضح له أنسباؤه الجدد أنه يمكنه أخذها معه حالا فهم لا يريدون مظاهر احتفال إذ أن هذا ليس زواجها الأول كما إنها ليست في أول شبابها، فقال في سره "كذلك أنا". سر شداد لرغبتهم هذه إذ ستختصر عليه مصاريف الزواج واجراءته، وهو الحريص على ما لديه من ماعز وإبل ويكفي أنه باع قعودين من أباعره لتمويل هذا الزواج.

نقد أهل المرأة ما اتفق معهم عليه من مهر. وجد أنهم قد أكملوا كل شيء ، زينوها وألبسوها ثوبا جديدا ملونا ارتدت فوقه ثوبا أسمر وتحزمت عليه بسفيفة من شعر الماعز وعباءة فضفاضة، وكانت ابنته عيدة حاضرة مشاركة في هذه الترتيبات.

عندما حان الوقت أركبوا العروس على المهر. سارت الى جوارها عيدة تحمل صرة كبيرة ذات ألوان زاهية فيها ملابس العروس تسندها بيد فيما تمسك لجام المهر بيد. هلهلت عيدة بخفر وهلهلت بعض نسائهم وأنشدت إحداهن وسط الهلاهل، وقد شق عليها أن تمضي عروس من قومها دون أن يتلى على شرفها القصيد :

جتك المهرة أصيلة
ما هي كديش هنود
كحيلة ربط
ما هي كحيلة گود[٨]

ثم تعالت الهلاهل، ومشين مع الرجال، وهم لا يكفون عن ترديد كلمات الترحاب والتمنيات بالتوفيق والفرح وسلامة الوصول

---

[٨] - جتك المهرة أصيلة (جاءتك المهرة أصيلة)
ما هي كديش هنود (ليست كديشا من خيول الهنود)
كحيلة ربط (المعنى المقصود فرس أصيلة)
ما هي كحيلة گود (ليست سهلة القياد)

حتى أوصلوهم الى قنطرة على ساقية وعادوا وعاد معهم زوج عيدة لأنه مرتبط بعمل حراسة في أرض شيخ وكان قد استأذن ساعة لحضور المناسبة.

لكن هاجسا ظل يدور في نفس شداد يفسد عليه فرحة العرس، هاجس يقول له أن شيئا مريبا في ثنايا هذا الأمر، وأخذ يتحين الفرص وهو يسير مع الرجلين لينظر الى زوجته الجديدة نظرة خاطفة. لقد ولى الزمن الذي يرغب فيه أن يمتلك زوجة جميلة وبارعة في إمتاع الرجل في الفراش. لا ليس هذا من همومه الآن، بل يحاول كلما حانت منه التفاتة أن يستشف أشياء، هل يبدو عليها السعادة وهي تمضي الى الحياة مع زوج رابع؟ ومعه هو؟ هل تعرف شيئا عنه وعن الحياة التي ستحياها في بيته؟ كان يلتفت كلما سنحت له فرصة ما بين أحاديث الرجلين اللذين يرافقانه محاولين أن يضفيا بعضا من جو المرح اللازم في مثل هذه المناسبات بالطرائف التي يرويانها وهما يريان العريس واجما وأكثر أوقاته مطرقا وقد عزيا وجومه وإطراقه الى تحرجه من إظهار الفرح.. وكزه أحدهما في زنده بلطف وهو يقول له:

-لو تشاء نشعل لك الجو بهاتين البندقيتين وننشد لك ونَدْبك حتى نصل بك وبعروسك عربنا[9]

فهز شداد يده لهما بأدب رافضا وقال :

-لا تفضحا شيبتي!

ضحكا وتطرقا الى قصص الزواج في سن الشيخوخة، قصة جد تزوج وهو في المئة أو قصة عم تزوج أربعا فإذا طلق إحداهن سارع الى الزواج بأخرى مكانها.

سار الرجال الثلاثة والمرأتان خلفهم على درب ترابي يتسع بالكاد لشخصين جنبا الى جنب، وسط حقول برسيم وحنطة طالعة للتو من الأرض السمراء المحروثة حرثا جيدا وقد سقيت بالماء ورشفت من المطر حتى انبسطت وذاب الخشن من حجارتها. تلفت شداد ناظرا مليا الى الأرض باخضرارها الوليد تكاد تمتد من اليمين واليسار مستوية الى ما لا نهاية غير أن أشجارا ونخيلا شكلت الأفق الأيمن تتخللها فسحات من سماء زرقاء، والى اليسار المنظر نفسه مع بيوت طينية وبعض بيوت الشَعر المتفرقة، أما الى الأمام فيلوح على البعد خط سكة القطار وبعده الطريق العام حيث تمر سيارة مسرعة كل

---

[9] - يقصد البدو بالعرب دائما مجموعة بيوت العشيرة إذ لا يقولون مخيم أو معسكر.

ساعة أو ساعتين، باص خشبي أو سيارة حمل، ونادرا سيارة خصوصية، متجهة الى الجنوب أو آتية منه، وكل منها يرسل هديرا متصلا مصحوبا بنفثات المحرك. بعد ذلك تمتد البرية المؤدية الى الصحراء، وإذا ما عبر المرء الشارع العام بمسافة يمكنه رؤية قطعان جمال متفرقة وبعض الأغنام والماعز ترعى هنا وهناك قرب بيوت شَعر، لعوائل من عشائر مختلفة، أقيمت متباعدة على شكل محيط دائرة واسعة وكل أهل بيت صنع لحيواناته صيرة من الحطب يُدخلها في الليل اليها خوفا عليها من الضواري، فيما تحوم الكلاب مؤدية واجبها الأبدي في الحراسة، ويقضي كل رجل ليله، كما هي الحال دائما، منتبها وسلاحه في متناوله أو نائما نوما خفيفا لو مر بقربه قطٌّ لفزّ.

وصلوا الى سكة القطار فأمسك شداد بلجام المهر ليجعله يصعد سدتها، التي لا تتجاوز مترا ارتفاعا، على مهل ويعبرها الى الناحية الأخرى. سنحت له الفرصة، والمهر يرتقي السدة، لينظر الى عروسه، في نفس اللحظة التي انكشف له فيها وجهها، كانت ذات ملامح لا بأس بها، ولكن هذه الملامح بدلا من أن تفتح نفسه على سعادة مأمولة جعلته أكثر وجوما، وأخذ يفكر بأنه ربما ارتكب خطأ لا

يليق بمثله أن يرتكبه. لم تكن المرأة قبيحة، لا بل إنها، وقد جاوزت الأربعين وعاشت حياة مضطربة متعبة دون شك، لا تزال على شيء من الجمال، لكن ما رآه من شحوب ونظرة مطرقة ذليلة فتحا له إطلالة خاطفة على أعماق هذه المرأة، على ماض لا يعرف تفاصيله ولكنه يستشعر ألمه، ماض يؤدي فيه طول الإذلال الى البلادة. إذا كان ممكنا لإنسان أن يحس، يحس ولا يعرف، بنظرة واحدة بما يتطلب البوح به زمنا فقد حصل هذا لشداد في تلك النظرة وتلك اللحظة.

عرف فيما بعد، في اليوم نفسه، التفاصيل التي كان يجهلها. بعد أن انتهت الوليمة التي أقامها لجيرانه، وزفوه زفة أُطلقت فيها بعض العيارات النارية مع هوسة قصيرة ليدخل الى حيث هيأت ضحوة والبنات مكانا له ولعروسه في البيت بأن جعلن الأفرشة وكل ما يصلح أن يوضع معها بمثابة ستر فاصل ما بين منامهن وباقي البيت. لكنه لم يقربها وأمضى بعض الوقت ثم خرج يبتسم بين الحين والآخر ابتسامة مجاملة لمن يلتفت نحوه من المدعوين الذين انشغلوا بأحاديث طريفة، ولم يلبثوا أن انصرفوا ورفع شداد الحصير الذي وضع عليه الطعام ونفضه على مبعدة ليسقط عنه ما فضل من الرز والخبز

والعظام للكلبين وكلاب الجيران التي جاءت هي أيضا طالبة حصتها من الوليمة. ما أن انصرفت النساء اللواتي حضرن للتهنئة وللمساعدة ذهبت ضحوة هي والبنتان بما تبقى ليوزعنه على باقي البيوت فرافقتهن عيدة لتبتعد عن أبيها الذي كان يحدجها كلما حانت منه التفاتة اليها أو مرت بقربه.

عندما عدن من توزيع الطعام ذهب شداد مع ضحوة الى حيث المراح لكي لا تسمع كيفة ما يدور بينهما، وسرعان ما لحقت بهما لمعة وليرة. كن فرحات بزواج شداد وقد تطيبن ببعض الطيب ووضعن الحناء على أيديهن، حتى ضحوة وضعت الحناء المخلوط بمسحوق الفُوّه لشعر رأسها لكي يميل الى الاحمرار. بقيت عيدة قرب مدخل البيت لأنها واثقة أن الحديث سيدور حول كيفة وأن والدها سيوبخها فقد رأت أثناء الطريق كيف تغير وجهه وظل طوال اليوم مقطبا:

-قولي لي ما تعرفين يا ضحوة.

كان وضحوة والبنتان جالسين على الأرض في فسحة بين الإبل الباركة داخل الصيرة فيما كانت الشمس تميل الى المغيب ساحبة على الكائنات ذيلها البرتقالي الشاحب:

-لقد رأيت ابتسامتك عندما عدت منهم يومها، وحسبتها مما قد تشعر المرأة به نحو امرأة أخرى قد تصبح ضرتها ، ولكني الآن واثق أنك كنت تكتمين عني شيئا.

-وماذا رأيت منها يا أبا عيدة؟

-لا تذكري اسمها أمامي الآن! لي حساب معها فيما بعد.

-ماذا رأيت من كيفة؟

-الناظر اليها يحسبها بلهاء أو مريضة بمرض كالبله.

-هي ليست بلهاء....

سكتت لحظات تفكر، وهي تحرك حفنة من بعر الجمال اليابس في راحتها، كيف تصوغ كلماتها:

-لقد قسى عليها الدهر فجعلها كالبلهاء. أردت أن أقول لك هذا ولكن، أمانةَ الله، أشفقت عليها في آخر لحظة وقلت في نفسي شداد يريد ولدا منها... فليكن. تعيش معنا ولا نكلفها فوق طاقتها....

قاطعها قائلا:

-لا بل سررتِ لوضعها هذا وفكرت أنك حصلت على ضرة تتحكمين بها وتسيرينها كما تشائين.

-لا والله....

قصت عليه باختصار ما سمعته من النساء. امرأة تزوجها رجل وأنجب منها أطفالا ولسبب ما، لا يبدو أنه لذنب مخل بالشرف ارتكبته، طلقها وفعل الآخران مثل ما فعل... قالت له هي امرأة سيئة الحظ لا غير ولم تلحظ عليها ما يشين، كل ما في الأمر أنها كالثولاء من قساوة الحياة التي عاشتها.

-حتى لو فرضنا حسن نيتك ألم تسألي نفسك. إذا كنت أنت العاقلة الرشيدة غفلت غفلة خسرنا بها خسارة العمر فكيف بثولاء تنجب لي أطفالا. أتصلح لحفظهم وتربيتهم؟

ندم لتسرعه في الكلام فنهض ومضى الى الخيمة، وأطرقت هي فقد فهمت ما يقصد. في تلك اللحظة شعرت بالوشيجة التي لم تحس بها إلا احساسا غائما، الوشيجة بينها وبين كيفة والتي جعلتها، يوم بعثها شداد لتراها، تتقبلها ضَرّة لها، تقبلا يخالطه التعاطف، هذه هي الوشيجة الناضحة ألماً للفقدان، لخسارة لا ذنب لها فيها والتي قُدّر عليها أن تحملها ذكرى مثخنة بالجراح التي يجيّشها التذكير، وقد أضاف شداد الى جراحها جرحا جديدا حين ذكرها بها.

برغم حيويتها وما يظهر عليها من جرأة فهي، بعد كل شيء، لم تكن آنذاك إلا فتاة صغيرة غرة قليلة التجربة في شؤون الأمومة

وكان التعب قد هدها نهارها الشتوي ذاك في أول يوم لنزولهما في تلك الأرض قضته تجمع الحطب وتخض حليب المعزى وتثبت رواق البيت وتسد ما فيه من ثغرات فيما كان شداد يرعى الإبل، لا يبتعد كثيرا بمنزله عن الأرياف حيثما وجد مرعى قريبا من البيت فليس من المناسب أن يخرج بزوجته الى البادية ويتركها وحدها في الخيمة وهي في تلك السن.

روّح بحلاله[10] الى بيته ووجد ضحوة قد وضعت جمر النار التي أشعلتها من أغصان شجر الأثل الثخينات في المنقل وأدخلتها الى البيت وشوت حبات بطاطس وكانت قبلها قد خبزت الخبز وغلت الحليب الذي عزلته له قبل أن تضع الباقي في الشكوة. تناولا الطعام وتجاذبا ساعةً الآمالَ بأن يصبح لديهما المزيد من الإبل والماعز ويرزقان بالمزيد من الأطفال الذكور بالإضافة الى ذلك الطفل الرضيع الذي رزقا به ولم يكن يومها يتجاوز الشهرين، تترك ما في يدها من عمل وتهرع اليه كلما بكى لتلقمه حلمة ثديها المكتنز حليبا بحيث يدر بمجرد أن تسمع بكاءه، وككل ليلة لا بد أن يعرج بهما الحديث الى الحميم من عواطفهما فيحتضنها شداد بقوة الشهوة الملتهبة ويستسلم جسداهما

---

[10] - يقصد البدو بمفردة الحلال ممتلكات المرء وخصوصا الماشية سواء في الريف أو البادية.

الى ارتعاشات اللذة ويظلا بعد ذلك وقتا منطرحين جنبا الى جنب ليستعيدا رتابة أنفاسهما.

خرج بعد ذلك، الى أن تهيئ ضحوة فراشهما، ليتفقد جماله الثلاثة وناقتيه وبكريهما داخل الصيرة التي جعلها قبالة الخيمة، أما المعزى والتيس الشاميان وسخلهما فيبيتون في ناحية من الخيمة معهما، ولم ينس أن يتفقد أيضا الكلبة (البَقعة) وجراءها التي وضعتها داخل طية من طيات الرواق بعيدا عن مهب الريح. أخلد الى النوم فيما بقيت ضحوة مستيقظة ككل ليلة الى أن تُقدّر أن الليل جاوز منتصفه فتوقظه ليبقى الى الفجر صاحيا يخرج بين الحين والاخر ليتمشى حول البيت وقرب الصيرة. لكنها تلك الليلة لم تكن هي التي أيقظته بل انتبه من نومه إذ سمع (البَقعة) تهر فهب واقفا وخرج اليها فسكتت وأقعت قرب جرائها تهز له ذيلها. تلفت وأصاخ السمع فلم يلحظ شيئا أو يسمع صوتا فعاد. نظر في العتمة الى ضحوة تغط في نوم عميق وقد احتضنت رضيعها الى صدرها. جلس موليا ظهره اليها ثم أخرج كيس تبغه ولف سيجارة وقلب بعود في رماد المنقل بحثا عن جمرات متبقية فلم يجد، فبحث عن زناده في جيبه وتحت الوسادة وأشعل سيجارة.

مع اقتراب الفجر بدأ يميز الأشياء من حوله جيدا. خطر على باله أنه لم يسمع الطفل يبكي أو يتحرك لفترة طويلة فالتفت فإذا به أمام المشهد الذي لن ينساه ما عاش. إن ضحوة، وإن لم تكن فوق الطفل، إلا أنها مالت عليه وهي متمددة وقد ضمته الى صدرها ترضعه، وشيئا فشيئا غطت في نومها. اختنق الطفل الرضيع الذي لم يبد سوى حركات مقاومة ضعيفة ليست من القوة بحيث تنبهها ومات وهو يضم بين شفتيه حلمة ثديها. وكزها شداد بعنف ودفعها بعيدا عن الطفل. نظر الى الطفل الذي ظلت شفتاه ترسمان استدارة الحلمة وهو هامد وكان وجهه أحمر مزرقا من الاحتقان. هذا الطفل هو أول أبنائها وأول أمواتها من رحمها إذ ولدت أناثا ماتت إثنتان منهن بسبب المرض وسط البادية حيث لا يوجد علاج ولا معالج، وأنجبت ابنها الثاني الذي بلغ الحلم ولكنه مات بالجدري.

حرك شداد الطفل لعله نائم فقط أو فيه بقية من حياة وضحوة التي لم تكف عن البكاء تنظر اليه عاجزة عن فعل شيء. يصعب على الكلمات أن ترسم الفجيعة في كيان الأبوين ومقتل الأمل في نفسيهما كما صعب عليه أن يقول كلمة واحدة، حتى بعد أن مضى بالطفل، صبر، ليدفنه خلف ربوة من دون أن يثير انتباه أحد من بيتٍ قريبٍ

تفصله عن بيته بركة واسعة من ماء السقي الفائض وماء البزل الذي يطلقه أصحاب المزارع المجاورة. لم يقل لها شيئا، لم يضربها لإهمالها القاتل لآماله ولم يعنفها عليه، كل ما قاله "لا أريد أن يعرف أحد من جيراننا بما حدث... كأننا لم ننجب" وظل صامتا واجما أياما بعدها، أما هي فقد عاشت في ذهول كالذي لاحظته على كيفة وأثار تعاطفها معها فقد ذكرها هذا الذهول بذلك اليوم، وإذا كان ذهول كيفة حزنا فإن ذهولها كان أكثر وطأة إذ جمع الحزن والندم والشعور بالذنب.

إنه ليس مختلفا كثيرا عن ضحوة في شعوره نحو كيفة فالحرمان هو قاسم الثلاثة المشترك، ويفهم أن هذه المرأة التي اتخذها زوجة ثانية أنجبت أولادا حرمت من أن تعيش معهم وتشبع رغبات أمومتها وتفرح برؤيتهم يكبرون وهي معهم. امرأة تعسة قدرها أنها ما أن يصبح أولادها في سن يمكن الاستغناء فيها عنها يركلونها ويعيدونها الى أهلها بحجة من الحجج. لكنها ليست من يريد فلديه من التعاسة ما يكفيه ويفيض عنه، ولديه من شقاء الحرمان ما لا يحتاج معه الى شخص آخر يضيف اليه من شقائه. هل يجرب حظه ويحتفظ بها؟ إنه يخشى أن تكون قد عبرت الحد، الحد الذي يفصل السوي

عن غير السوي، عبرت حد التمييز الذي بعده الذهول التام. إذا لم تسر الأمور كما يرام فستكون عبئا لا يستطيع تحمله، وهو في هذه السن وعلى هذه الحال. هكذا فكر وهو يترك ضحوة والبنتين في الصيرة ويتوجه الى البيت. وجد عيدة في جانب من البيت فتقدم نحوها وانحنى قليلا وهو يقول مكشرا عن أسنانه:

-روحي واجلسي مع أمك وأختيك.

رأت عينيه تقدحان شررا ولكنها واثقة أنه لن يؤذيها فقد عرفته منذ وعت على الدنيا لا يضرب بنتا غير أنه غاضب دون شك. هبت طائعة وخرجت وهي ترجح أنه يرغب أيضا في الدخول على عروسه مرة أخرى والاختلاء بها. قالت "إي يبَّهْ!" وأسرعت نحو الصيرة. لكنه لم يرغب حتى في لمس العروس. لقد عزم على أن لا يقربها ويرى كيف تسلك في الأيام القادمة.

توغل الليل في السكينة بطيئا باثا في نفسه الضيق. بين الحين والآخر يسمع أحد كلبيه، طوق و ذيب، من كلبته البقعة التي قتلتها ضباع في معركة غير متكافئة، طوق وذيب اللذين يستطيع تمييز صوت كل منهما عن الآخر، يهر حين يرى حيوانا غريبا أو يشم رائحته أو حتى يلمح خيالا بعيدا. الجمال والماعز في صيرتها تخلد الى الهدوء ولا

يبدر منها سوى أصوات تململ وهي باركة أو صوت احتكاك أحدها بأعواد الصيرة اليابسة وهو يغير مكانه. أنصت الى الجانب الآخر من البيت، هو يعرف، برغم السكون التام الذي يوهم بأن ضحوة وبناته الثلاث نائمات، أن ضحوة بالذات ساهرة تنصت مثله، اليه، تترقب متى تسمع ما يؤكد لها أنه أخذ كيفة بين أحضانه، عندها تسكن المشاعر المتناقضة المتلاطمة فيها وتتبدد ويكون الأمر قد حسم واستقر على حال.

ظل متمددا على ظهره ينظر الى سقف البيت يتخلل نسيجه انعكاس سماء ترسل بصفائها ضياء قمر فتي، لكنه لا يستطيع أن يبقى على وضع واحد في منامه كما في زمن الشباب، وإذا كان هذا ينفعه في كل ليلة إذ ينتبه كلما أحس بحاجة الى أن ينقلب على جنب آخر فيصيخ السمع الى ما حوله، فإنه هذه الليلة غير مرتاح في فراشه لسبب إضافي. يقول في سره متبرما " لماذا جعلن المكان ضيقا هكذا؟ الله يلعنهن!" ويستدير ببطء لكي لا يمس كيفة فتظن أنه يتقرب اليها. يكمل استدارته وينظر اليها فتطالعه عينان واسعتان وسط عتمة ليل لا يخفي استدارة وجه لم تستطع هتك نعومته إلا تجاعيد قليلة تكاد لا تبين، تنظر اليه العينان بثبات، واليدان الملون باطنهما بالحناء

تحت الخد، متطابقتان، ولا يفتأ يشم في جو الخيمة بقايا رائحة البخور، ومن الجسد الممتد الى جواره رائحة زكية ربما هي رائحة مسك أو عنبر أو هي رائحة الرغبة. يغمض عينيه بقسوة. بعد قليل يحس وهو مستفز الأعصاب، يحس بحركة، يخمن أن يدا محناة فارقت أختها تتسلل اليه، وبأصابع تمس بأطرافها طرف ردنه برقة وتحركه ظلَّ حركة، بوجل ولكن بتوق أيضا، داعية إياه الى نفض كل شيء عنه وعنها وفض عالمها ليغسله بماء انهماره في عتمة خيمة تحت سماء رحيمة. لكنه وهو على إغماضه لا يقوم بأية حركة، وليس ما يمنعه هو الحيرة، وأنه لا يزال يخير نفسه بين أمرين، بين أن يطرح كل المحاذير جانبا ويمتطي مهر الرغبة آملا في النهاية بغنيمة الولد وبين أن يحتكم الى ما يراه حكمة تهديه الى القناعة بما هو وعائلته عليه، ويحمد الله ويشكره على ما عنده مكتفيا، بل أربكته هذه الحركة التي لم يتوقعها منها والتي تقول له بفصاحتها الأنثوية إنها هنا، موجودة، ومتهيئة، للعناق والاندفاع لتعتلي أية ربوة تشاء. كل هذا يحس به، يعرفه ويفهمه، لكنه لا يستطيع، لا يستطيع، واستدار بحزم الى الجهة الأخرى.

لم يمض طويل وقت ليتخذ قراره القاطع. في اليوم التالي قالت ضحوة لكيفة أن تذهب لجمع ما يمكنها جمعه من سَرْجِين تجده في الأنحاء حيث ترعى ماشية القرية القريبة حرة. ذهبت كيفة وطال غيابها فقلقت ضحوة ومضت تبحث عنها فوجدتها نائمة في ظل شجيرة وقد تغطت بعباءتها وأمامها قطع سرجين. سألتها ماذا تفعل هنا؟ فأجابتها بأنها جمعت السرجين لكي لا يأخذه أحد ولكنه لين جدا لا يمكن حمله وتنتظر الى أن يجف. ضحكت ضحوة من كل قلبها وقالت لها تعالي لا نريد سرجين بعد.

حين أخبرته ضحوة ضرب على فخذه. سواء كانت بلاهة كيفة هذه من أثر القهر أو كانت خصلة فيها فقد رأى أن ما فعلته من النوع الخطر في البيئة التي يعيشون فيها والتي تتطلب نباهة ويقظة، إذ يمكن أن تعرضها بلاهتها الى ما يودي بحياتها أو ما يلحق العار به.

في اليوم التالي لم يكلفها أحد بالذهاب بعيدا بل طلب منها هو عند عودته من ديوان الشيخ النازل في جواره أن تضع الجمر في المنقل وتدخله الى الخيمة فكانت من شرود الذهن الى درجة أنها كادت تدس يديها في الجمر لكنها انتبهت عندما لسعت اطراف أصابعها

حرارة الجمر فسحبتهما وهرعت اليها ليرة، الطفلة آنذاك، لتساعدها بنقل الجمر بطاس الى المنقل.

راقب كيفة وهي جالسة مع ضحوة والبنتين. هي تفهم ما يقلن وتبتسم عندما يلاطفنها، وتتكمش على نفسها بخجل كطفل لاطفه شخص كبير. ليس هو عالم من العلماء بالنفس البشرية ولكن ما يراه ليس أنها غير مدركة لسبب وجودها هنا، أو على نحو أدق، ليس أنها غير مهتمة أو لا تعرف ما يعني. حانت منها التفاتة نحوه مرة، وكانت التفاتتها، نظرة لا ظل للبلاهة فيها، نظرة امرأة ترمق رجلها، هكذا بكل بساطة.

لكنه رجل علمته الحياة أن لا يجازف وأن لا يدع الشهوة تركبه وتسير به الى مهاويها. أمرها أن تنام مع ضحوة والبنتين من الليلة لكي يقطع الطريق على الرغبة أن تهزه فيندفع لاحتضانها في لحظة شوق لأن يلتحم جسده بجسدها وتنصهر كل ليالي حرمانهما وتذوب في مجرى ارتعاشهما نحو مصب النشوة. قرر أن يعيدها الى أهلها بعد أسبوعين بعذر يحفظ كرامته وكرامتها ولا يغضب أهلها، وقد شرع في التفكير بعذر مناسب منذ اللحظة... أجل، من الأفضل أن يقول لهم أنه رأى أنها لن تقوى على حياة البداوة ويخشى عليها من الأذى،

أو شيء من هذا القبيل، وهو غير كاذب. وسيقود لهم بعيرين من إبله مع معزى لها، ويكون مسرورا إذا انتهى الأمر برضاهم، ولماذا لا يرضون؟ إن تخلي شداد عن شيء من حلاله أمر نادر الحدوث ويعده بمثابة تضحية، فكيف إذا كان يتعلق بالتخلي عن بعيرين ومعزى دفعة واحدة. سيطيرون فرحا. أجل... أكيد، وإذا ذهبوا الى الجوبة ببعيريه الأشعلين المتحدرين من نسل إبل السادة فأقل ما سيحصلون عليه مئة دينار إن لم يكن مئتين، ويتخلص من هذه الورطة التي لا يعرف كيف أوقع نفسه فيها... آه من هذه العيدة الملعونة!

رافقه من جيرانه رجل يدعى شعيب، متوسط العمر، ربع ذو وجه مدور وملامح ناعمة. اطمأن شداد الى أن الأمر سينتهي برضا الطرفين، وقد كان مصيبا، ولكن شيئا ما في نفسه، شيء لا يعرف له تفسيرا تململ بين جوانحه، هل هو ضعف ورقة الشيخوخة أحس بهما نحو كيفة وهي تفترق عنه دون رجعة وتتوجه الى حيث حجرة النساء؟ لم تلتفت نحوه طوال الطريق، وحين قال لها بصوت خافت "إذهبي" كانت هي تعرف المغزى، هذه النهاية عاشتها مرات، حفظتها، ومهما كانت بليدة، إن جاز لنا وصفها بهذه الصفة، فقد

هزت رأسها هزة خفيفة خيل اليه أنها إشارة الموافقة، لا بل هي الى الطاعة أقرب وأسرعت باتجاه النسوة اللواتي تجمعن قرب باب حجرتهن ينظرن اليها، فيما رسم ابتسامة عريضة ومد ذراعيه ليحتضن أخيها الأكبر الذي استقبله مرحبا وهو يرمق جانبا البعيرين اللذين يقودهما رفيق شداد بنظرة متسائلة ولمّا لمح صرتين على ظهر أحدهما أصبح واضحا له أن فيهما ثياب أخته وحاجاتها.

حاول شعيب في طريق العودة أن يبدد الكآبة التي لفت شداد ولم تفارقه منذ أن خرجا من مضيف أهل كيفة إذ لم يشيعهما أحد من الرجال الى مسافة أبعد من باب المضيف، وقد أزعجه هذا فلم يسبق له منذ أن وعى الحياة أن وضع نفسه في موقف محرج كهذا الموقف. لم يكن يجدر به حتى ولو مجرد الاستماع لكلام عيدة.

قال شعيب وهو يربت على كتفه:

-يعوض الله يا أبا صبر.

قال شداد ساخرا:

-يعوض ماذا..... الزوجة أم المال؟

- كلاهما.... وما تشاء.

-لا أريد زواجا بعد هذا، أما المال فبعير أكل بعيرا.

إنفجر شعيب ضاحكا ومد يده اليمنى ليمسك بذراع شداد اليسرى وهما يسيران وقال متوسلا:

-بروح أبيك... إحك لي حكاية هذا المثل! أليس هو مثلا؟ إحك يا أبا صبر بروح والديك!

لم يكن شداد راغبا في سرد الحكايات ولكنه حكى إذ رأى الحكي في كل الأحوال وسيلة لقضاء الوقت والتسرية عن النفس:

" يا خوي يوم من الأيام ركب بدوي جمله وقاد خلفه جملا آخر لبيعه في السوق لحاجته الى بعض المال. باع الجمل بثمن لم يكن يحلم به فوضع النقود في صرة قماش وعلقها بحزامه. كان فرحا جدا وفي طريق عودته صادف نهرا فقرر الاغتسال. وضع ثوبه على الأرض وفوقه الصرة ونزل الى النهر. لم ينتبه وهو منشغل بالاغتسال الى أن بعيره بدأ يلوك الصرة بفمه وقبل أن يدركها كان الجمل قد ابتلعها بما فيها. عندما وصل الى أهله تلقوه وقد استبد بهم الفضول وسألوه "ها أبا فلان؟ بِشّرْ ! بكم بعت؟" فأجابهم " بعير أكل بعيرا. "

ضحك شعيب من كل قلبه وابتسم شداد فبعد كل شيء هو قد تخلص من ورطة.

٣

فكرت ضحوة بأن شداد لا زال عنيدا لا يريد الاعتراف بأنه لم يعد قادرا على مواجهة مشقات حياة الترحال، ولكنه الى الآن لا يتصور حياة أخرى له غير هذه الحياة. هي أيضا غير قادرة على تصور العيش في حياة أخرى. الحقيقة أن شداد، وإن كان من عشيرة بدوية في الأصل إلا أن عشيرته استقرت منذ زمن وأخذ أفرادها، ومنهم شداد، يعتادون على حياة الريف وتعلم الزراعة وأصولها مع احتفاظهم بإبلهم في البادية مع رعاة، وهو لم يعد الى حياة البداوة إلا إرضاء لها لتعيش حياة كالتي عاشتها مع أهلها وأحبتها، وقد برهن بمرور الزمن أنه متمسك بها بالقدر نفسه، ولكنهما، هي وهو، تقدما في العمر.

تذكرت ليلة الخروف الصغير الذي اشتراه شداد من جوبة الغنم بالديوانية ليذبحه ثوابا للأموات في العيد بعد أشهر وقد تعجبت ضحوة والفتيات لهذا التصرف المفاجئ إذ مضت سنوات طويلة على آخر من مات من العائلة وهو ابنهم عبيد الذي توفي بالجدري. كادت ثورته على عجزه ليلتها أن تودي بحياته، إذ انتفض حين سمع الكلبين يثوران ثورة لا تعني إلا أن ذئبا أو ضبعا داهمهم وراحا في عدو

ونباح محمومين فانطلق شداد خلفهما وهو لا يحمل سوى عصاه وخنجره بحزامه، وكأن فورة من فورات الشباب انبثقت في جسده الشيخ فراح يركض مسترشدا بصوت النباح " هوه طوق!.. هوه... هوه... ذيب!"، يشجع الكلبين اللذين اندفعا، وهما يسمعان صوت سيدهما قريبا خلفهما يمدهما بالعزيمة فأطبقا على الذئب من الجانبين ينهشانه بين الحين والآخر وهما يجاريانه في ركضه الذي أثقله تمسكه بالخروف، ولكن يبدو أن الذئب الذي لم يكن ينوي التخلي عن فريسته، مع سماعه لنباح كلاب البيوت المتباعدة على الرابية يقترب منه من كل الجهات، أيقن بأن غزوته هذه فاشلة فأفلت الخروف وانحرف انحرافا خاطفا الى سبيل النجاة.

عاد شداد يقود خروفا يكاد لا يقوى على السير. دهشت ضحوة حين طلب منها أن تشعل الفانوس ورأته يمد الخروف على الأرض فجأة ويذبحه سريعا بخنجره، ويتحامل على نفسه فيسلخه ويقطعه قطعا كبيرة ترك لها أمر تقطيعها الى قطع أصغر. ثم ذهب الى فراشه وتمدد عليه وهو يتنفس بصعوبة. قال وهو يسترد أنفاسه شيئا فشيئا:

-اصنعي لنا غدا طعاما شهيا بقسم من لحمه واعطي الباقي لبيت أو بيتين من الفقراء بثواب أهلنا.

-لماذا ذبحته؟ كان متعبا فقط ولم يبد عليه أنه يموت.

-ألا تعرفين يا امرأة أن الذئب الذي زارنا الليلة لن يترك هذا الخروف بسلام وسيأتي في ليلة أخرى ويأخذه؟ لا بد أن يأخذه فالذئب لا يتخلى عن غنيمته ما دامت حية. ثم أنه عضه من رقبته وقد غارت أنيابه في لحمه ولا أظنه سيعيش بعدها.

ونام في فراشه الى الظهر. لم يكن غائبا عن وعيه تماما أثناء نومه وكعادته يسمع كالحالم كل ما يدور حوله. سمع ضحوة والفتاتين يقطعن اللحم وفيما أخذت الفتاتان تطبخان الطعام قامت أمهما بتوزيع اللحم على بعض البيوت.

عند الغداء حكت لهم ضحوة ما سمعته من زوجة المدعو جليّان عن أمها العجوز المسكينة التي لم ترزق بولد ولذلك هي تعيش في بيت زوج ابنتها، ولأن زوج ابنتها ضعيف الحال ولكي لا تكون مجرد عبء عليه في المعيشة، تدور كل يوم في العربان لتجمع لهم ما يجود الناس به عليها وتعود أحيانا وقد تصدقوا عليها ببعض الأشياء الثمينة، فيستولي جليان على كل ما تجلبه، ولو كان ثوبا نسائيا وغيره مما هو ليس بطعام، ومع ذلك فهو يكرهها و لا يطيق وجودها، وذات ليلة صيفية وهي نائمة في ناحية قرب صريمة الحطب شعرت بيد تهزها

وصوت يفح في أذنها "استيقظي... استيقظي يا بديرة" وتفتح عينيها فترى كتلة من السواد منحنية فوقها، فتسأل بصوت مرتجف مختنق "ما أنت .... ما أنت... ماذا تريد؟" فيرد عليها الفحيح من رأس الكتلة السوداء "أنا ملك الموت جئت آخذ روحك" فترجوه وقد أخذها الفزع "لا يمه لا... لا تأخذ روحي" فيقول لها "لا تبقي في بيت جليّان إذاً. إذا وجدتك هنا غدا آخذ روحك" وفي الصباح قالت لابنتها "أنا أودعك بالسلامة يا بنيتي... أنا ذاهبة ولن أعود" فسألتها ابنتها "ولماذا تذهبين ولا تعودين يا أمي؟" فتقول المسكينة "لقد جاءني الليلة الماضية عزرائيل وقال لي إذا بقيت هنا سآخذ روحك" ضحكت ابنتها من قولها "يخيل اليك هذا، ولعله جيثوم من أكلة أكلتها، لأن ملك الموت إذا جاء يطلب روح أحد لا يرجع بدونها" فارتاحت العجوز بعض الشيء "ها... إذا أنت ترين هذا... زين، سأذهب وأعود"، وذهبت ذلك اليوم تدور على البيوت أو تجلس على الطريق لتأتي بما يجود به الناس عليها كالعادة. في الليلة التالية جاءها نفس المخلوق المخيف الذي لا يبين منه شيء "ألم أقل لك أن تذهبي ولا تعودي؟ سآخذ روحك الآن...." فتوسلت به "لا يا ملك الموت. غدا أذهب ولا أعود" وعندئذ....

تسكت ضحوة وهي تنظر بخجل الى شداد فقال لها:

-قولي... قولي، لا عليك! أنا أعرف جليان هذا منذ كان غلاما، فقد صحبت أهله مرة في رحلة الى عرعر.. فاسق منذ كان صغيرا وكذاب ومحتال. إن ملك الموت هذا الذي تذكره لك زوجته ليس إلا جليان نفسه متخفيا تحت عباءة أو ما شابه، وهو يفعل أي شيء يخطر على البال دون حياء أو خجل.

أكملت بكلمات متلعثمة جعلت البنتين تضحكان وتغطيان وجهيهما بأيديهما.

"أخرج جليان لها عورته وقال لها "لن أصدقك حتى تحلفي... مدي يدك وامسكي هذا وقولي وحق هذا السلطان لا أرجع لبيت جليّان" فانكمشت على نفسها ضامة يديها الى صدرها وهي تقسم له أنها لن تعود غدا، وفعلا ما أن بدأت الشمس بالشروق انطلقت بعد أن حكت لإبنتها ما جرى وهي مرعوبة غاية الرعب ولم ترها ابنتها منذ شهرين".

-هل تظن يا أبا صبر أن ابنتها متفقة معه على إخافة أمها لكي تهج؟

هز يده التي يمسك بها السيجارة فيما كان يمد يده الأخرى فوق الجمر وأجاب:

-لا أدري... الذي أعرفه أن مصير هذه المرأة هو مصير كل من لا ولد له.

٤

وضعت ضحوة الشكوات الفارغة من الماء على الحمار وساقته الى بئر الأخيضر لملئها ولكنها تأخرت هذه المرة ولم يستطع شداد أن يذهب الى مضيف الشيخ في الوقت المعتاد الذي يذهب فيه اليه لأن لمعة التي ترعى الماعز خلف البيت ستبقى وحدها وهو لا يحبذ تركها وحيدة فبقي الى أن عادت ضحوة.

-ما الذي أخرك؟

-البئر ليس عليه بناء يمنع وقد وجدوا صغير ماعز ساقطا فيه فأخرجوه بشق الأنفس لضيق البئر. وجدوه ميتا فانتظرنا الى أن

أفرغوا البئر من الماء الموجود والى أن صار فيه ماء جديد. كدت أن أذهب الى وادي الأُبيّض.

- لو يبنون عليه حتى يحفظوا الأطفال من الوقوع فيه.

وفرك عينيه بلطف بيده وقال:

-ما لحليب النوق هذا لا يشفي عيني وهو الذي يشفي أمراضا شتى؟

ابتسمت ضحوة وتمتمت:

-كل واحد و حظه.

أخرج منديله ومسح به عينيه. لكنه، مع شكواه هذه، يشعر بشيء من الراحة منذ أن كحلت له ضحوة عينيه بالأمس. أعاد المنديل الى جيبه وقال وهو يمسد لحيته موجها بصره الكليل الى ناحية مجموعة بيوت الشَعْر المنصوبة فوق أرض قليلة الارتفاع.

-اليوم أسمع من مضيف الشيخ رضوان صوتَ هاون القهوة أعلى من كل يوم وفي وقت أبكر من المعتاد.

التفت ناحية قطعة الأرض المعشبة خلف البيت حيث ذهبت لمعة بالماعز وتبعها الكلبان، وأكمل متهيئا للنهوض:

-أظن أنه من المناسب واللائق لي باعتباري في جوارهم أن أحضر أيضا لأرى ما الأمر.

التفتت هي أيضا ناحية البيوت:

-تفعل خيرا يا أبا صبر. يبدو أن أمرا ما حدث. أحسست عند الفجر بحركة غير عادية هناك.. إذهب...

حين إقترب شداد من مضيف الشيخ بحيث أخذ يميز التفاصيل كاد أن يتوقف ويعود أدراجه. رأى الراية أمام المضيف بيد رجل حيث يوجد رجال آخرون وخيول يرجح أنها مسرجة، تلك الراية لا تظهر إلا عندما يحدث أمر جلل أو مناسبة مهمة. الظاهر يوحي له بأن من الحكمة أن يتراجع إذ يستحسن أن لا يشارك هذه المرة في شيء حتى ولو بمجرد الحضور والجلوس فقط. شيء ما، إحساس غامض، ينفره من التقدم أكثر ويحبذ له أن يعود الى بيته حيث يجلس في فراشه متدثرا بفروته، مستمتعا بجو أول الربيع. لكنه فكر أيضا أنهم ولا بد رأوه قادما و لا يمكنه التراجع.

دخل وسلم فتلقاه الشيخ رضوان وهو في مجلسه مرحبا:

-مرحبا بأبي صبر... تعال اجلس هنا الى جانبي.

قُدمت له القهوة فتناول الفنجان وشرب ما فيه وأشار للقهوجي بالاكتفاء ثم أخذ يمعن النظر بأقرب الرجال الذين يمتلئ بهم المجلس على البُسط الممدودة، رجال متهيئون لقتال دون شك، فهم من الكلام الذي دار بينهم أن رجلا من هذه العشيرة ذهب الى أرض عشيرة أخرى بقصد السرقة وقد أمسكوا به وأهانوه إهانة منكرة ثم أطلقوه فجاء الى مضيف الشيخ رضوان الذي تفاجأ بوجوده جاثيا الى جانب المضيف عند الفجر ولما سأله عن الأمر قص عليه ما حدث فأمر القهوجي بأن يدق الهاون ليجتمع رجال العشيرة، كان أكثر الحاضرين تحمسا واندفاعا للقتال رجل عرف شداد أنه ابن عم اللص، جاهز للقتال، بالبندقية الماطلي والحربة الطويلة التي يعلقها بحزامه، يقف مرة عند مدخل المجلس بين الصفين ومرة يخطو الى الداخل وهو يتحدث بصوت عال محرضا على الثأر للإهانة التي لحقت بالعشيرة وليس بإبن عمه فقط:

-لو كانوا ضربوه... لا بل حتى لو قتلوه لكان أحسن، عندها كنا سنقول لهم الحق ولكن أن يفعلوا به ما فعلوا فهذا ما لا نقبله يا محفوظ[١١]...

---

[١١] - محفوظ كلمة يُخاطب بها شيخ العشيرة وتكون للتعبير عن الاحترام والدعاء له بالبقاء.

بدا على الشيخ رضوان الذي عركته التجارب الميل الى السلامة وتجنيب عشيرته عواقب التقاتل الذي لا يعرف كيف ينتهي ومتى وكم ستفقد العشيرة من شبابها بسببه. رد وهو يبتسم ابتسامة الترضية والتهدئة:

-هون عليك يا جسام... إنما دعوتكم الى هنا لنتشاور ما نفعل غير القتال وشروره. أرى أن نبعث اليهم بطلب لعقد مجلس رد اعتبار.

أرعد جسام:

-مجلس؟ رد اعتبار؟ هم يردون علينا اعتبارنا؟ وما فعلوه؟

-يا جسام... إن ما فعلوه ليس سوى عبث صبياني لا يمس شرفا وهو ليس إهانة أبلغ من إهانته لهم حين تجاسر وسطا على أحد بيوتهم. إن فعلته تعد في سنن العشائر مخلة ولا يحق لنا حتى العوض المادي.

-نعم صدقت يا محفوظ، ولكن في حالة الإمساك به ويبلغوننا بالأمر. عندها يحق لهم العوض ورد الاعتبار ولا يحق لنا، ولكنهم وضعوا على رأسه وجميع أنحاء جسمه فضلات الحيوانات والبشر وأرسلوه لنا. لا.... لا يا محفوظ. حاشاك منها!

أطرق الشيخ قليلا ثم رفع رأسه ناطقا بآخر حجة لديه:

- حتى لو صار الاتفاق على السير لقتالهم فإنك كما يبدو غافل عن حقيقة أن بيننا وبينهم عشيرة أخرى وسيكون من غير اللائق وأمرا محفوفا بالمخاطر أن نعبر أراضيها في هذه الحالة...

-نرسل لهذه العشيرة نبلغها...

واستدار مبتعدا ليجلس.

كان شداد، أثناء هذا الحديث كله، يفكر. بدا له موقف الشيخ رضوان معقولا ولكنه لم يرغب أن يبدي رأيا وأكثر ما خشيه لحظتها أن يُسأل عن رأيه. لكن الشيخ رضوان الذي كان بين الحين والآخر يلتفت اليه كأنه يستدرجه الى الإدلاء برأيه واجهه أخيرا بما يخشاه فوجه اليه سؤالا مباشرا:

-ما تقول يا أبا صبر؟ هل سمعت بأن شيئا مثل هذا حدث من قبل في العربان...

عرف أن الشيخ رضوان قد وضع بسؤاله هذا كل أمله فيه، وضع أمله في أن يقول ما ينهي الأمر على خير وبرغم أنه تحدوه الرغبة في صنع هذا الخير إلا أنه لا يزال كارها للتدخل:

-هلا تعفيني يا محفوظ؟ أنا ضيفكم في جواركم ولي السمع فقط.

هز الشيخ رأسه مشجعا ومصرا على أن يجيبه:

-دعك من هذا يا أبا صبر. أنت لست غريبا فأنتم أبناء عمومتنا. هيا قل لنا ما كان العرب يفعلون إذا حدث عندهم مثل ما سمعت!

سكت وخيم صمت على المجلس والكل ينظر الى شداد. كانت وطأة الصمت شديدة على شداد وأراد أن يبدده سريعا فسأل:

-هل جاء أخوكم الى هنا والفضلات ما زالت عليه؟

أجابه رجل يجلس أمامه:

-أجل.

تبسم شداد وهو يتناول سيجارة من التي يلفها الخدم ويضعونها أمام الراغب في التدخين.

-أجل... حدث شيء قريب من هذا.

إبتسم الشيخ رضوان بدوره وقال:

-قل لنا إذاً!

توكل شداد على الله في سره وبدأ بسرد القصة ولكن بإيجاز لم يألفوه عنه:

-كان يوجد رجل في ريف من الأرياف ذهب مثل صاحبكم للسطو على أحد البيوت في عشيرة أخرى. أمسكوه وحلقوا له شاربا

من شاربيه وتركوا الشارب الثاني، لم يفعلوا به شيئا غير هذا وتركوه يمضي.

أشعل السيجارة بزناده وأخذ نفسا منها وأكمل:

-عاد الرجل الى بيته بكل هدوء قبل إنبلاج الفجر. قال لزوجته إذا سأل عني أحد فقولي أني ذهبت الى المدينة، ولم يخرج من بيته الى أن نبت شعر شاربه...

نظر حوله الى الرجال المثبتة أنظارهم عليه وكلهم آذان صاغية:

-ألم يكن بإمكان أخيكم هذا أن يجد ساقية أو بركة في طريقه فيغتسل ويغسل ثوبه ويعود كأن شيئا لم يكن أو يدخل بيته كما فعل ذلك الرجل بدلا من فضح نفسه؟

ندت من هنا وهناك كلمات الاستحسان لما قال. لكن إبن عم اللص صاح معترضا:

-ما هذا الذي تقول؟ أتعلمنا الأصول؟

فالتفت اليه الشيخ رضوان غاضبا، وقد شعر بأن كلام شداد كسب المشاعر لصالح الحل السلمي، ووجه كلامه اليه موبخا:

-أسكت يا جسام. وكف عن النفخ في النار. إبن عمك معتدٍ ولن نفقد شبابا من عشيرتنا بسببه.

لم يرغب شداد أن يُغضب جسام وهو على علاقة طيبة معه:

-لا تغضب يا أبا مبارك، بارك الله فيك، واسمع هذه...

لنا أخوال استقروا وأخذوا يشتغلون في الفلاحة. حدث نزاع مع قريب لهم من جهة النساء فقتل أخا لهم. جعلوا اعتبارا للعشرة والقرابة ولم يقدموا على فعل شيء بل أعطوا عشيرة الرجل مهلة لحين عقد المجلس. لكن الشيطان أبى إلا أن ينزل بهم الكوارث فتلبس امرأة من نسائهم جاءت ظهرا الى جمع من أقرب رجال العشيرة الى القتيل وهم يشقون السواقي ويعدلون المروز تحمل اليهم ماء ولبنا وتمرا وبينما كانوا يأكلون نظرت الى أحدهم تمنطق بحزام جلدي علق به خنجرا كبيرا فهزت رأسها وقالت "آه لو كان هذا الخنجر لي لذبحت به فلانا من الوريد الى الوريد" وتقصد بفلان القاتل، فرموا الأكل من أيديهم، إذ رأوا في كلامها تعييرا لهم وهي امرأة، وحملوا أسلحتهم من فورهم ومضوا نحو بيت القاتل الذي يقطن منطقة بعيدة. كانوا عشرة، فانظر ما الذي حدث يا أبا مبارك ولا يهون الشيخ رضوان والحاضرون، داهموا مضيفه ليلا وكان مبنيا على مسافة من البيت ويعرفون أنه يبيت مع ضيوفه عادة فوجدوا رجلين نائمين هبا نحوهم فقتلوهما وهم يظنون أن القاتل أحدهما فلما تبين أن

الرجلين ضيفان قصدوا البيت الذي كان هو ينتظرهم على سطحه فقتل منهم أربعة وعاد الباقون خائبين، فلا هم أخذوا بثأر أخيهم ولا هم عادوا سالمين، وقتلوا رجلين من عشيرتين فأصبحوا مطلوبين بعد أن كانوا طالبين. يا أخوان... إن التجارب عبر وربما أخذتم حقكم بأهون الطرق وأسلمها وأنتم كلكم أعزاء فإذا أظهر خصومكم الانقياد الى الحق واعتذروا علنا أمام الناس أليس هذا أفضل من أن يُقتل منكم ومنهم رجال؟

تعالت كلمات الاستحسان والثناء لشداد "أحسنت أبا صبر.... تعيش والله".

أشار جسام بيده وقد خفف من عناده:

-هذه نعرفها يا أبا صبر. أتدلنا عليها؟

عندها قال له الشيخ رضوان:

-لا تكلم أبا صبر هكذا!

ثم وجه كلامه الى الجميع:

-فليعد من يشاء الى بيته. اتركوا الأمر لي لأتفاهم مع شيخهم.

ومال نحو شداد هامسا:

-هل ترغب في الذهاب مع من أرسلهم. أنت رجل حكيم وأحب أن يكون لك قول في الأمر.

عندها قال شداد راجيا ولكن بحزم:

-هذه إعفني منها... حقا. أرجوك يا محفوظ.

هز الشيخ رأسه موافقا:

-كما تشاء.

وطلب شداد الإذن بالإنصراف وقد لمس من البعض انزعاجا مما قال، وفضل أن يكون بعيدا عنهم ذلك اليوم.

٥

تصعد ليرة الى أعلى قلعة الاخيضر كلما كانت أباعرها ترعى قريبة منها، وتجلس على الجدار الشاهق ناظرة الى الشمال الغربي من حيث تأتيها النسائم الباردة في الضحى الربيعي، ومن حيث أتى الرجال الشداد التسعة عشر الذين أرسلهم الملك الحاكم في الشام مخبئين في صناديق أقفالها من الداخل ليفتحوها متى وصلوا ويلقوا القبض على صديقه سيد الاخيضر ،خفاجة عامر، ويجلبوه له مكبلا بالحديد لأن زوجة هذا دست له عند الملك دسيسة أوغرت صدره عليه فحمله الرجال مع الزوجة الى ملكهم.

كان والدها يتفنن في رواية التفاصيل كل مرة بأسلوب مختلف يجعل السامع يرى القصة نفسها أو يتخيلها في ضوء جديد ويحس بها أحاسيس جديدة، متأني النبرة مرة وهو يمسد على شاربه ولحيته بأصابعه المدهنة بالشحم بعد أكلة دسمة، ومرة يلوح ويؤشر بيديه بانفعال وكأنه يرسم في الهواء ما يلفظه باللسان فاتحا مخيلته على سعتها

وراسما بألوان خلابة القلعة الواقعة على طريق القوافل وساكنيها ومرابط الجمال والبغال والحمير ومضايف التجار والوفود وغرف النساء والخدم والمضْيفة الكبيرة التي يجالس فيها سيد الأخيضر ضيوفه الذين لا تغادر منهم قافلة حتى تأتي مكانها أخرى حاملة من بضائع الشام أجمل المصنوعات وما خف حمله وغلا ثمنه، أو متجهة بالعكس نحو الشام حاملة، من موانئ الخليج والبصرة، من بضائع الهند ولذائذ فارس، ومن الأقمشة كل جميل ومن التوابل كل مشهٍ، ومن العطور أزكاها. وربما أضاف شداد تفصيلا هنا وتفصيلا هناك لم يسبق للسامعين أن سمعوه ، وهم ليسوا سوى أفراد عائلته أو ضيوف من جيرانه، فيعزو إقدام رجال الملك على قطع رأس سيد الأخيضر في الطريق الى الخطأ غير المقصود وتارة الى أن الزوجة الغادرة خشيت إذا وصل زوجها الى الملك حيا أن تنكشف مكيدتها فأوقعت بعض الرجال في حبائلها وأغرتهم بقتله، ولكن هذا لم ينقذها فقد أمر الملك بقتلها وقتل الرجال التسعة عشر الذين عصوا أمره وقتلوا خفاجة عامر. بل ربما بدل القصة كلها، وكأنه في هذا محب للتغيير والتأليف بقصد تسلية نفسه والحاضرين لا أكثر، وقد سمعته مرة يسردها مختلفة تماما لجليسين من الجيران بعد العشاء في

ليلة صيف وكانت هي وأمها وأختها جالسات في الخيمة التي أزيح رواقها جانبا للتهوية يستمعن الى ما يدور من أحاديث خارجها:

" كان، يا ضيفيّ العزيزين، لخفاجة عامر زوجة جميلة لم يتخذ غيرها زوجة له معها ويغدق عليها حبه ورعايته عندما يكون مقيما في قلعته وعندما يعود من رحلة للتجارة يكون قد جلب لها أثمن الهدايا وأغلاها، ولكن هذه الزوجة، والعياذ بالله، لم تكن تقدر النعمة التي هي فيها، وتفعل الشينة مع عبد من عبيده في غيابه، وكان هذا أيضا من أخص عبيده عنده وأكثرهم حظوة لديه، ولكن للحرام من هذا النوع حلاوة من ذاقها ذهب عقله وعميت بصيرته، إلا من رحم ربي وأجنبه عن هذه الوخيمة، لكن الله بالمرصاد ولا بد لخائن النعمة وناكر الجميل من أن يفتضح يوما، عاد خفاجة عامر من سفرة له بسرعة غير متوقعة فدخل عليهما وهما غارقان في رذالتهما. كان خفاجة رجلا حكيما رزينا استطاع أن يسيطر على غضبه. أمر العبد أن يخرج من قلعته ولا يريه وجهه أبدا بعد اليوم وطلب من الكلبة، حاشاكم، أن ترتدي ملابسها وتسمع كلامه قال لها لن أقتله ولن أقتلك ولن أفضحك. سأسيرك الى أهلك وكل ما أريده منك أن ترفضي العودة معي كلما ذهبت الى أهلك وقولي لهم لو خلطتم لحمي

ولحمه على حصير فإن لحمي سيبتعد عن لحمه وإذا سألوك عن السبب فقولي لا أرغب في العيش معه. إن أهلك شيوخ أشراف ولا أريد أن يتلطخ صيتهم فاحرصي أن لا تقولي السبب الحقيقي مهما ألحوا عليك. فرحت اللعينة بهذا الكلام فلم تكن تتوقع عقابا أسهل من هذا العقاب وقد ارتعدت فرائصها أول مرة وظنت أنه قاتلها وقاتل عشيقها العبد الغادر الذي سرت بنجاته من الموت.

فعلت كما أمرها و طلقها. إن الذي ولغ في الحرام لا يستطيع الصبر عنه، فلم يلبث أن تبعها صاحبها الى أهلها وأقنعتهم بحيلة ما كرة أن تتخذه خادما لها ، وإنّ مكرهن لعظيم. بعد فترة حدث ما يتوقعه كل عاقل وضبطوهما بالزنا المشهود، ولم ينجوا من الموت هذه المرة. بلغ الخبر خفاجة عامر فتبسم وقال:

أمور اليدبرها حليم

ويطلع من عواقبها سليم"

تلتفت ليرة الى الخلف ناظرة الى ساحة القلعة الواسعة وهي تحاول أن تتخيل اشكال الأبواب والممرات المحيطة بالساحة أيام الازدهار حيث كانت تقيم النساء فيه يرفلن بنفيس الثياب محاطات بالإماء والخدم، غير أنها إذا كانت وحدها لم تكن تجرؤ على التوغل في القلعة

المهجورة التي امتلأت أرضيتها ودرجاتها بالتراب الأبيض الناعم المتساقط من الجدران، وقد سمعت بأن في القلعة في مكان، لم يقل أحد ممن تعرفهم أنه رآه، يوجد ثعبان ضخم يحرس كنزا، يقول البعض أن عمره مئات السنين فيما قال آخرون أن الإنكليز حين دخلوا العراق وعلموا بأمر الكنز والثعبان الحارس عمدوا الى ربط كبش بحبل وأنزلوه من فتحة السرداب أو المغارة، إذ لا يعلم أحد ما هو المكان بالضبط، حيث الغيابة المظلمة، سمعوا ثغاء الكبش المرتعب وأصواتا كأصوات عراك، ولما سحبوا الحبل بعد ساعة أو نحو ذلك لم يكن الكبش موجودا فقد التهمه وحش ما، إذ شاهدوا على الحبل دما وآثار عض، فذبحوا كبشا آخر ووضعوا أنواع السموم الفتاكة فيه وأنزلوه كما فعلوا بالكبش الأول فلم يعد اليهم، عندئذ عرفوا أن الوحش، سواء كان ثعبانا عملاقا أو شيئا مهولا آخر، قد التهم الطعم فانتظروا فترة ثم أنزلوا كبشا حيا عاد اليهم دون أن يمسه سوء. أصبحوا على يقين من أن الطريق أصبحت سالكة آمنة الى الكنوز المخبأة في سراديب القلعة فأرسلوا جنودا مدججين بالسلاح الى الداخل. لا يعلم أحد تكملة القصة وما الذي يمكن أن يكون الإنكليز قد وجدوا تحت القلعة فقد حرصوا على أن يبعدوا عن

المكان كل فضولي متطفل، لا بل أنهم أبعدوا حتى الذي يعمل معهم معينا من الهنود والعراقيين.

هكذا يمر الوقت سريعا وهي في تأملاتها حتى يحين الظهر وقد تجد ناقتها الحيزة أو المقودة قد ولدت حوارا صغيرا جميلا بالكاد يقوى على الوقوف فتحمله وتضمه الى صدرها. تركب أمه وهي تضع الحوار في حضنها.

بعد الظهر، بعد أن تحلب أمها المرضعات من الجمال والماعز، فيفوح الحليب المشبع بروائح الشيح والقيصوم والشنان الذي أكلته النوق. تسخن أمها بعض الحليب لصبه على الدهن الحر وتثرد فيه أقراص الخبز الحار فينقض عليه أفراد العائلة ولا يتركوا في قعر الماعون الكبير حتى الفتات، أما باقي الحليب فيترك في قدر واسع لأيام حتى يصبح حامضا فيوضع في الشكوة المصنوعة من جلد الماعز ويخض ليستخرج منه الزبد الأبيض.

بعد الغداء تمسك ليرة بحبل الحيزة فتفهم هذه ما المطلوب ولا تبرك كما تفعل للآخرين بل تخفض رأسها الى الأرض. تباعد ليرة ما بين ساقيها، وتتعمد أن تكون الفتحة ما بين الساقين على قدر رقبة ناقتها الأثيرة، وتسند وجهها الى الرقبة فترفعها الحيزة، يمر الوبر من

ركبتيها، نحو الأعلى، ملامسا نخذيها بخشونة خفيفة التموج، مثيرة، حتى تستقر قرب السنام وتعبره لتستقر خلفه وتصيح صيحتها:

-حيّووه....حيزا!

فتعرف الحيزة الوجهة الى المرعى. ربما وجدت في المرعى صبايا مثلها فيتركن جِمالهن ترعى ويأخذن بالتجوال في المنخفضات حول الأخيضر حيث يمكن لمن تشاء أن تشرب ماءا زلالا بمجرد أن تزيح طبقة من الرمل بكفها فينبجس الماء الصافي أو يقصدن الكثبان الغريبة، كثيب أصفر وكثيب نيلي وكثيب أحمر وكثبان بألوان أخرى يمكن، بعد إزاحة القشرة المتصلبة، أخذ قبضة منها وإذابتها في طاس ماء فيتحول الى لون سائل وهكذا يقضي الصبيان، من الذكور والإناث، ذلك النهار ينثرون الألوان على الأرض أو يصبغون بها الحصى أو يضعون بها وسم قبيلتهم على ما لم يضع أهلهم بعد وسمهم عليه من حيواناتهم بالحديد المحمي فترى الصبيان والصبايا قد رسموا بالعيدان، بألوان شتى وأشكال شتى، وسم بني زيد الشبيه بالعكازة، ووسم شمر الصلتي الشبيه بالمطرقة ، والخطين وسم عنزة، والدائرة وسم الرفيعي، وغيرها من الوسوم. إلا أن أباها لا يضع أصلا أي وسم ويترك أباعره أغفالا خوفا من أن يفقدها في غارة من الغارات إذ

أن الذين يغيرون ينظرون الى الوسم فيأخذون أباعر من ينتمي الى عشيرة لها عداوة مع عشيرتهم، وإبقاؤها أغفالا يزيد من فرص أن لا تتعرض للنهب إذ لا يستطيع الغازي معرفة لمن هي خصوصا وأن شداد يكون في أكثر أوقات السنة بعيدا عن عشيرته وقد لا يجد معينا له في تخليص أباعره من قبضة الغزاة.

يقول كبار السن أن الكثبان ما هي إلا مخلفات البضائع من المواد التي تصبغ بها الأقمشة والأصواف والتي كان يستوردها سيد الاخيضر فلما أصابته المصيبة التي ذكرنا وتشتت من بعده أهله وسكان القلعة وخدمه وهجروه بقيت أكوام البضائع التي نهبها الناس وتركوا ما لم يروا فيه نفعا لهم.

في تلك الأنحاء ينمو نوعان من الكمأ، أبيض اللون ويسمونه زبيدي وقهوائي اللون ويسمونه حِمْري. يتنافس الصبية والصبايا في العثور على الكمأ الأجود والأكبر، ولكنهم لا يستطيعون الاتفاق على من هو الأطيب، أهو الزبيدي الذي يشبهون طعمه بعد السلق والهرس بطعم قشدة حليب الناقة اللذيذ فكأنه حليب الأرض، أم الحمري الذي يقولون أن طعمه كطعم اللحم تماما؟ يصادف أن تقضي ليرة نهارها تفتش عن بروزات في الأرض متشققة وقد لاح الكمأ من

بين شقوقها وتنصرف الى أهلها وقت الرواح وهي تحمل معها على ظهر حيزتها ملء كيس من القماش من أكبر وأجود ما تجد، وكيسا آخر وضعت فيه أغصانا من نبتة الشنان لتغسل به أمها الملابس حيث تضعه في القدر وتغليه ليذوب كالصابون. تحدو ليرة بالإبل الحداء الذي تعلمته من أختها لمعة التي كانت ترعى قطيع أهلها قبلها، تحدو وهي على ظهر الحيزة حداءها المنغم " هيدووو.... هيدا".

إن ليرة مغرمة بهذه الحياة التي يجد فيها المرء ما يسد حاجته، كل شيء حولها كأنه خلق لكل شيء، وكم يعجبها أن تستمع لأبيها وهو يعدد فوائد حليب الناقة الذي يشربه المكسور دون تسخين فينجبر كسره في أيام معدودات كالسحر، ويسقى للمصاب بالسعال الشديد وآلام الصدر فيشفى. أما فوائد النباتات في الجزيرة فلا تعد ولا تحصى كما كانت تقول أمها فحتى الشنان المبذول ينفع للنفساء إذا اغتسلت به تتعافى ويدر حليبها وينفع للمربوط فيفك ربطه، والعاقول الشائك عجيب أمره إذ يضرب به المصاب بالصرع أو الصداع فيشفى من ساعته. أما عندما يصادف نزولهم مع العشيرة تبدو لها الحياة مجدبة عقيمة لا نفع فيها، حتى في نباتاتها، ومعقدة مليئة بالممنوعات، حيث لا يمكنها الذهاب الى أبعد من النهر، وقد نبهها عمها غير مرة

الى أن الحياة في القرية تختلف عن الحياة في البادية إذ لا يمكنها مجالسة الصبيان كما كانت تجالسهم. إن القرية، أو ما يسمى مجازا قرية لأن عشيرة أهلها لا تزال، برغم مضي سنوات عليها مستقرة، تعيش حالة انتقالية من البداوة الى الريف في إقامة هي أشبه بالمعسكر لا يزالون يحتفظون فيها ببعض قطعانهم من الجمال يخرجونها الى البادية الشرقية مع رعاة. لم يبتنوا دارا طينية، وكل ما يفعلونه في الصيف هو بناء سقيفة مطوقة بالحصران صيفا وعندما يحل الشتاء يلجأون الى خيامهم القديمة نفسها، بيوت الشَعْر. نعم اعتادوا سريعا على أعمال الريف فيزرعون الحنطة والشعير، ولكن ليس الخضراوات التي يزرعونها على قدر حاجتهم قرب بيوتهم.

تجلس خلف سنام الحيزة فتسير تهزها وئيدا والهواء الطلق يضرب وجهها، كل يوم كأنها تولد من جديد، تشم رائحة الأرض التي لا تزال خدرة غافية على بقايا برد ليل الصيف وتثير الحيزة والقطيع الذي يتبعها ترابها بخفافها وحوافرها وتنثره على النباتات المستسلمة للَثْم قطرات الندى فتهتز وتطلق روائحها فتتنشق ليرة مزيج الاشذاء، بوح السعادة من كائنات الطبيعة، تنتعش بالعطور البرية والنسائم المتسربلة بزرقة سماء الصباح فينبض نهداها الصغيران، بالغا الصغر،

جوريتين على وشك التفتح، ويهتز صدرها لتفتح النهدين، ويسري خدر اللذة في ساقيها حتى أخمص قدميها. لم تكن هذه الرعشات المستمتعة تعني لها شيئا مما يدور في خلد الكبار فيتقونه بالرقابة والزجر والمنع، ولا يخطر منه على بالها شيء. فسعادتها مكتفية بنفسها، وحتى عندما كانت تجالس صبيا من أولاد الجيران النازلين في بيوت متباعدة على ظهر هضبة متطامنة، فتمس يدها يده وهما يعبثان بجرادة أو فرس النبي أو يعابثان خنفساء عنيدة أو يحتك أثناء السير جسدها بجسده فيهتز القد النحيف بعنفوان تباشير البلوغ اهتزازا سريا، في الروح قصيا، لا يبدو لها الأمر غير سعادة مضافة الى سعاداتها التي لا تحصى ولا جنس لها. لا يخلو المرعى من حضور لبعض أهل الحي البالغين فهم لا يطمئنون الى ترك الصبيان لوحدهم تماما يتعرضون لشتى المخاطر التي لا تخلو منها البادية. لكن حضور البالغين هذا لا يكون حضور رقابة وزجر إلا في حالات نادرة.

الحيزة مركب يتهادى، والدرب ما هو إلا النهر المحفوف بالأمنيات والتوقعات الخضر في برد الصبح، تروح على مجراه خفافاً، فيتفتح الصدر ويسري في الجسد النحيل الخدر. تتنوع فرحة الصبا وتتلون ذكرى صويحباتها اللواتي يتغيرن بين حين وحين ، ومنزل

ومنزل، فتكون في كل مرة كأنها تجد لها دنيا جديدة بوجوه جديدة وحكايات لا تني تتغير وتتنوع، وأرض لا تكف عن بعث عطر مختلف كل صباح هو توليفة من الديرة وترابها ونبتها أنعشها الندى.

٦

لم يبد على الشتاء أنه قد أفرغ كل ما عنده من الهزاهز والأمطار، وقد تأخر ذهاب شداد لمضيف رضوان ذلك اليوم. سأل ضحوة وهو ينظر الى الأفق الغربي:

-ماذا ترين هناك يا ضحوة؟ أليست غيوما ممطرة؟

نظرت هي أيضا الى الأفق البعيد:

-نعم..... واللهُ أعلمُ.

غيوم ثقيلة سوداء تسوقها ريح أخذت طلائعها تخفق في السماء من فوقه وتهب ضاربة وجهه وهازة أستار البيت من خلفه، هزا خفيفا منذرا، إلا أنها غير مستمرة في اتجاه واحد ما يوحي له بأنها قد تغير اتجاهها ولا تصلهم تلك الغيوم البعيدة، وهي تخيفه أيضا لأنها على تذبذبها هذا قد تعني أنها تسبق ريحا تقذفهم أولا بعاصفة ترابية وبعدها تغرق الأرض بوابل من المطر. التفت الى حيث مضت ليرة بالأباعر وفكر قليلا قبل أن يلتفت الى ضحوة قائلا:

-فلترجع لمعة بالمعز وادخليه في الخيمة وضعي ترابا إضافيا على الرواق من داخل الخيمة ليسنده ويمنع الماء شديد الانهمار من الدخول علينا. أنا ذاهب الى مضيف الشيخ فإذا هدأت الريح أبقى وإذا اشتدت يكون أسرع لي أن أذهب من هناك لأساعد ليرة في سوق الأباعر.

لكن القطرات التي بدأت تسقط على خيمة المضيف أقنعت شداد أن ما يخشاه وشيك الحصول. نظر الى ما فوقه وشاهد القطرات تشكل شيئا فشيئا خطوطا على النسيج الشَعْري البني للبيت وأخذت بعض القطرات تنزل بلطف سقطت واحدة على يده. لكن

هذه القطرات سرعان ما تتقطع كالعادة إذ يدرع النسيج بماء المطر نفسه ولا يعود ينفذ منه شيء بل ينحدر الى مجرى الوني.

-يبدو يا محفوظ أن عاصفة مطرية ستضربنا.

نظر الشيخ رضوان الى خارج الخيمة حيث بدأ سقوط القطرات يتسارع:

-أجل والله يا أبا صبر...

-وستجلب معها وهي تهب من هذه الجهة عاصفة رملية أيضا..

-صدقت...

ثم التفت الى الحاضرين من رجاله:

-ضاحي، جليجل، جبر.... خذوا الرجال معكم وأدخلوا الأباعر والغنم والماعز الى حضائر قلعة الأخيضر وغرفه ولا تخرجوها حتى تتوقف العاصفة...

ثم نادى على رجلين آخرين:

- شايع، مدلول.... خذا العبيد والخدم وجولوا بالخيام تأكدوا من ثبات الأوتاد وقوة الحبال وحفر الوني وسدوا النقص.

أجابه الرجال بكلمات الطاعة وخرجوا ولم يبق في الخيمة مع الشيخ رضوان غير الضيوف وشداد. التفت الشيخ رضوان اليه وقد ضيق فتحتي عينيه وابتسم لأنه يعرف رده مقدما:

-ألا أدع الرجال يأخذون حلالك أيضا مع حلالنا فتكون أكثر اطمئنانا عليه؟

ابتسم شداد بدوره وقال وهو يهيئ نفسه للنهوض:

-جزاك الله خيرا يا محفوظ.... أنا وحلالي نكون في خيمتي.

فضحك الشيخ وهو يربت على ظهر شداد:

-يا الله... ما أغربك! فأسرع إذن!

عندما أصبح شداد خارجا كانت الريح قد بدأت تهز حطب الصير والصرائم وأخذت الخيم تخفق. نظر الى الغرب فشاهد أباعره قادمة... هي بكل تأكيد إذ ليس من أباعر تأتي باتجاهه الآن غيرها. أسرع نحوها وأخذ يسوقها مع ليرة ويدفعها الى الإسراع بمناداة أمها الحيزة وابنتها الكبيرة المقودة " هيداا.... هيدووه... حيزا... قودا"، وبعد قليل صار من الصعب عليهما أن يعرضا نفسيهما للريح وللحطب المتقلب في كل على الأرض فلاذا بجانب الأباعر وهما يركضان معها نحو الخيمة التي أدركاها لحسن الحظ قبل أن يغدو صعبا على

أي مخلوق أن يبقى دون ملجأ يلجأ اليه. أدخل شداد الحوارين وتلفت حوله يحصي الماعز. قال لضحوة:

-أحكمي سد الرواق لا تدخل علينا الريح.

تساءلت

-والأباعر... هل ستصمد في هذا العصف والمطر الذي تضرب قطراته بيتنا وتكاد تمزقه لقوتها؟

-لا عليك ستتدبر هي والكلبان أمرها ككل مرة. ستبرك خلف الخيمة معطية أعجازها اليها وصغارها أمامها وبينها حتى تنتهي هذه العاصفة.

بحظت عيون كبار الماعز رعبا وهي تفز من جمودها كلما إهتز البيت فكأن قطعة من السماء تدلت فوقهم تكاد تنفصل وتسقط عليهم بين لحظة وأخرى بريحها العاصفة ورعودها والاصطفاق المدوي يكاد يخرق عليهم البيت ببرقه في أية لحظة. ساعد بروك الأباعر خلف الخيمة وبجانبها على التخفيف من قوة ضرب الريح للبيت. سكن الجميع... شداد وعائلته وحيواناتهم وقد اكتنفهم من كل جانب وهم في ملاذهم الذي يرتج ارتجاجا يكاد يهده فوقهم. ثم أخذ ماء المطر يتسرب الى داخل البيت من مكان ما تحت الرواق

بسبب بروك الأباعر الذي طمر الوني من أماكن. أشار عليهن شداد أن لا يفعلن شيئا وأن يقرفصن مثله. استمر هذا العناء ساعة من الزمن، وفجأة، صحت السماء إلا من غييمات بيض فيما اندفعت الكتلة السوداء ببروقها بعيدا نحو الجنوب. أخرجوا الماعز والحوارين وذهبت ضحوة والبنتان ليجلبن حطبا يابسا يضعنه على الأرض داخل البيت على شكل طبقة حتى ولو كان مبللا لكي يفرشن الفراش عليه فيما أخذ شداد يتفقد جماله وتلقاه الكلبان وهما يهزان ذيليهما وقد بللهما ماء المطر المخلوط بتراب العاصفة. قالت له ضحوة وهي تدخل حزمة من الحطب:

-يبدو أن العاصفة أطاحت ببعض البيوت في عرب الشيخ رضوان.

-الحمد لله لأننا لم نصب بضرر كبير.

لم تكن ضحوة قد أكملت فرش أرض الخيمة بالحطب حين سمعت صوت شداد يعلو بقلق:

-أين الحيزة؟... الحيزة غير موجودة.

كان السؤال بالنسبة اليها غريبا غرابة دفعتها للابتسام وكادت أن تقول له:

-وأين يمكن أن تكون... تبخرت؟

لكن فمها جمد على ابتسامة شاحبة. استدارت مندفعة الى خارج الخيمة وتبعتها لمعة وليرة بنفس الاندفاع والقلق. وقف شداد والنسوة الثلاث يديرون البصر حولهم والهواء اللطيف الذي أعقب العصف يتلاعب بأثوابهم ويتخللها ببرودة قارصة ويسف على البرك الصغيرة التي صنعتها مياه المطر فيحرك فيها أقواسا من الحباب. كانت الأباعر والماعز قد ابتعدت عن البيت الى حيث تقف في المراح عادة وتبرك ولكنها ظلت واقفة رافعة رؤوسها تتشمم الريح ولم يعد لصيرتها وجود فقد نسفتها العاصفة بعيدا، ولعلها أدركت هي أيضا غياب أمها الحيزة فأخذت تدير البصر حولها وتطلق النداءات وأخذ حوارها الذي لم تمض على ولادته أيام كثيرة يدور بحثا عنها.

لا يمكن لشداد أن يعرف لماذا اختارت الحيزة هذا الأخدود الشبيه بنهر جاف ليكون هو مرقدها الأخير، بعيدا عن البيت، ولا يدري متى فارقت قطيعها وقصدت هذا المكان لتبرك فيه وتمد رقبتها وتضع رأسها بكل وداعة على التراب الذي تحول الى طين يحيط بها. إن شعوره نحوها لا يختلف عن شعور المرء نحو إنسانة شعرت بدنو الموت فتلقته راضية مرحبة وأعدت له مكان اللقاء في وداع طقوسي

خاص لا يخلو من حب للحياة المبتعدة بسلام كشمس تغيب، وأرادت أن تجنب أحبابها مرآها وهي تحتضر فلجأت الى مكان قصي ترسل آهاتها الواهنة في نزعها الأخير.

اعتصر الألم قلب شداد، فللحيزة في نفسه مكانة رفيق الحياة، ولا تختلف عنه شيئا في هذا ضحوة والبنتان اللواتي كن مثله يبحثن في الأنحاء فلما رأينه يشرف على الأخدود ويبقى جامدا ينظر الى قعره هرعن اليه واندفعن نحو الجثة الهامدة لِما كانت يوما، بالنسبة للبنتين خصوصا، صديقة شريكة في السراء وعونا على الضراء. أخذن يدرن حولها يتحسسنها وينظرن بين الحين والآخر الى رأسها لعلها لا تزال حية دوختها العاصفة لا أكثر وسرعان ما ترفع رأسها وتنهض هادرة بشوق الى فصيلها. سألت ضحوة بلوعة:

-ما دهاها يا شداد؟ ما أتى بها الى هنا؟

-لقد طعنت في السن وكانت الفترة الأخيرة صعبة عليها منذ أن ثقل حملها وولدت...

ثم سكت متأملا وقد مرت أمامه سيرة حياتها منذ أن اشتراها ناقة قعودا كومض الحلم وغابت:

-أما ما أتى بها الى هنا.. فلطالما كانت عندي أعقل من كثير من البشر.

-ماذا نفعل الآن؟

-وماذا تفعلين؟ لقد جنبتك الحيزة العناء ولم تمت عند البيت بل جاءت الى هنا. فلنتركها حيث هي....

وتأمل في أنحاء المكان ليقول بعدها:

-لم أر ناقة اختارت أين تموت وكيف تموت قبل هذه الناقة.

كان الكلبان، طوق وذيب، يدوران حولهم، يقتربان تارة من الحيزة يشمانها وينظران اليها متراجعين الى الوراء وهما يصدران هريرا متوسلا كأنهما يدعوانها الى النهوض وتارة يصعدان جانبي الأخدود ويدوران من جديد وقد بعثت فيهما الحيرة رائحة الموت التي اختلطت برائحة الحيزة الأليفة. حتى بعد أن جذبت الرائحة كلابا من الأنحاء لم يشترك الكلبان في الوليمة بل قاتلاها مرة أو مرتين دفاعا عن الحيزة ولكنهما انسحبا بعد ذلك ليكتفيا على البعد بمراقبة الكلاب التي تأتي لتنهش لحمها وينبحان عليها معبرين عن غضبهما، وفي الليل أخذا يشمان رائحة ضباع آتية من تلك الناحية فجن جنونهما وراحا في نباح محموم لكنهما لم يبتعدا كثيرا عن البيت الى

أن ملا من النباح وخلدا الى الهدوء فأقعيا بين البيت والأباعر فيما كان الحمار الذي شم رائحة الضبع يلوذ بجانب البيت خوفا. لكن بكاء ضحوة وبنتيها لم ينقطع الى منتصف الليل حين هدهن التعب والحزن ونمن ولم يبق من صوت يُسمع من داخل البيت سوى صوت شداد يتحرك فيطقطق الحطب تحت فراشه أو يسعل وهو يأخذ نفسا من سيجارته ويحرك الجمر بعود ليدفعه الى التوهج ويحاذر في الوقت نفسه من أن تسقط جمرة من المنقل فتروح بين عيدان الحطب.

٧

سمع شداد الكلبين ينبحان مبتعدين فعرف من نباحهما أنهما ذهبا نحو عابر سبيل أو ضيف وبعدها تناهى اليه وقع حوافر فرس ثم الصوت المألوف:

-كيف حال عمتي العزيزة... كيفك لمعة...

عرف فيه صوت راهي إبن أخ ضحوة.

-فأين خالي شداد إذاً؟

هكذا كان يدعو شداد، خالي، برغم أنه لا علاقة قرابة بينهما، وليسا من عشيرة واحدة، ويعلو بصوته كعادته مرحا متباهيا. سمع ضحوة تسأله:

- من أين أتيت بهذه الفرس؟

-من شخص لم يعد بحاجة اليها.

زم شداد شفتيه ودس سيجارته في رماد المنقل. هذا الراهي بالذات آخر من يود أن يراه الآن:

-مرحبا خال! ألم تسمعني؟

رفع شداد رأسه فرأى الفرس أمام باب الخيمة وعلى ظهرها راهي. أجاب ساخرا وهو يتأمل الفرس بإعجاب :

-شممنا ريحك قبل أن نراك.

ولم ينهض رأسا لاستقباله فقد ألغى هذا العرف بينه وبين راهي منذ زمن طويل، وفي الواقع أن راهي لم يكن يهتم كثيرا، أو على الأدق، يظهر لا مبالاة مغلفة بالمرح إزاء برود شداد نحوه.

-لا يبدو على هذه الفرس أنها من خيولكم....

شعر بالرغبة في النظر اليها عن قرب فنهض وعدل وضع فروته على كتفيه. قال راهي الذي ترجل وقاد الفرس جانبا ليعقد طرف عنانها على وتد ركن البيت:

-كبرت يا خال وثقلت حركتك.

راهي شاب جميل، وهو وإن قارب الثلاثين فلا تزال ملامحه توهم الناظر أنه في العشرين، حنطي البشرة فاتحها، عيناه عسليتان وله ضفيرتان من شعر أشقر، ويعتمر غترة بيضاء عليها عقال رفيع ويرتدي ثوبا أبيض فوقه صاية صوفية كستنائية بحزام من نفس القماش واللون. مبتسم أغلب أوقاته وليس من السهل على أحد أن يجعله يظهر غضبه، وبقدر ما يصعب على من يواجهه معرفة رد فعله فإن الذي يعرفه لا يستطيع أيضا الاطمئنان الى ما توحي به ابتسامته من وداعة ومسالمة فالغدر أقرب وسائله وأحبها الى قلبه وهو يتفنن به كما يتفنن في النصب والاحتيال، وليس بمستبعد منه القتل أيضا. كل هذا يعرفه عنه شداد وإذا بات عنده ليلة فإن هذا يقضيها صاحيا وهو متمدد في فراشه ويده أقرب ما تكون الى سلاحه. مع ذلك لا يبدو للذي لا يعرفه أنه شخص سيء أبدا، بل إن القلوب لتميل اليه من أول نظرة، إذ أنه يمتلك تقاطيع ناعمة محببة توحي ببراءة

طفولية، وأشد الناس ميلا اليه النساء وبعضهن تنقاد اليه انقياد المسحورة، ولكن شداد وعائلته يعرفونه جيدا، وبنات عمته اللواتي طالما أمل أن يزوجه شداد إحداهن لا يشاركنه هذا الأمل، فهن على رأي أبيهن به وإن كن يظهرن له المودة بحكم القرابة ويفرحن لقدومه لأنه حلو الحديث وتقضي العائلة معه ساعات لا يشوبها الملل، غير أن شداد لا يأمن جانبه فالذي يجرؤ على السطو على بيت صديق هو أجرأ على السطو على بيته.

قبل سنوات نزل شداد في شَيشِبار ليعمل في موسم الحصاد بنقل الحبوب كما في كل سنة فالتقى بواحد ممن ارتبطوا بعلاقة صداقة مع أهل راهي وكان وقت التقائه به ساكنا هناك في بيت مبني باللِبن ويمتهن الزراعة، قال له بأن راهي زاره يوما، وكانت تلك أول زيارة وآخر زيارة. استأذن قبل حلول الليل للانصراف، وقد لاحظ الرجل قبل ذلك نظرة راهي الى البندقية الانكليزية التي اشتراها حديثا وربما خمن المكان الذي يمكن أن يضعها فيه وقضى أكثر الوقت عنده ينظر الى أنحاء البيت متفحصا فارتاب الرجل. أوصى زوجته وابنه الذي كان لا يزال صبيا أن لا يقوما بأية حركة إذا رأيا شخصا يسطو على البيت ويلزما الفراش. وفعلا تسلل راهي الى البيت

ولكنه في حين كان مرتديا ثوبا فاتح اللون عندما غادر عاد وهو يرتدي ثوبا غامق اللون لكي لا يكون مرئيا عن بعد في الليل. وجد صاحب البيت الذي كان في النهار في ضيافته جالسا بانتظاره والبندقية في حضنه وقال له:

-أهلا بإبن صاحبي... ما الذي أرجعك؟

فتمتم راهي مرتبكا وهو يحل لثامه:

-لم أجد من يقلني الى حيث أقصد.

-فما بال ثوبك تبدل لونه؟

-ذلك كان عتيقا واشتريت غيره.

-ألن أجده في صرة بين الشوك إذا خرجت للبحث عنه؟

لم يجبه راهي.

-ما الذي بيدك... خنجر؟ أكنت ستذبحني يا راهي لو اضطررت؟

لم يجبه أيضا:

-أظنك متعبا تريد النوم.

ونادى على زوجته أن تفرش فراشا له، ولكن راهي استدار وخرج.

تجاوزه شداد ودار الى خلف البيت وهو يقول:
-فك رباط الفرس وإت بها لتربطها هنا.
إستاء راهي لقوله هذا:
-ولماذا؟
-أنت تعرف شيئا وأنا أعرف شيئا آخر. أطعني واربطها هنا!
لم يكن لراهي إلا أن يفعل كما أمره شداد فهو لا قبل له بشداد إذا أطلق للسانه العنان ويخشى أن يطرده إذا لاسنه. لكن شداد لا يطرده فسنن العرب لا بد أن تُحترم كما أنه ابن أخ ضحوة. قاد راهي الفرس على مضض لأنه كان يرغب بالتباهي بها فيرونها الناس من بعيد وهم في بيوتهم مربوطةً أمام بيت عمته، وربما جاء من يحب أن يراها وقد يشتريها بثمن غال. توقع شداد أن يفكر راهي هكذا ولكن محذورا من المحاذير دفعه الى أن يجعل الفرس خلف البيت مخفية عن أنظار العرب قدر الإمكان وقد حمد نفسه لأنه يختار دائما النزول متنحيا وهذه إحدى فوائد التنحي.
دار حول الفرس ذات اللون الذهبي اللامع المميز. لم ير في حياته فرسا بهذا اللون والجمال سوى مرة واحدة في شبابه. تأمل السرج المبطن ليمنح الجلد السميك ليونة ويجعل الراكب مرتاحا، ومسح

على كفلها ورقبتها ولمس عرفها. فرس أصيلة في غاية النشاط لا تكف عن الحركة في مكانها وتود لو تفك ويمتطيها فارسها لتنطلق تشق هواء الربيع وتضرب أرضه في عدوها. التفت خلفه ليتأكد من أن ضحوة ولمعة لا تزالان على مبعدة منشغلات بوضع العدس والرز على قطعة قماش لتعريضه الى حرارة الشمس فقد بلله ماء المطر الذي تسرب من تحت الرواق، وكانتا قبل قليل قد ألقيتا التمر المبلول في صيرة الماعز. قال لراهي الذي انتهى للتو من ربط الفرس:

-لا يبدو انك جئت بهذه الفرس طوال الطريق من نواحي جلولاء الى هنا، ويبدو لي أنها ليست من خيول أهلك. من أين حصلت عليها؟

نفض راهي يديه ونظر اليه نظرة تعني " ألا تمل من مضايقتي؟" التي يوجهها الى شداد كلما حاصره بأسئلته الموحية باتهام ما، ومد يده الى شداد ليصافحه فصافحه ببرود وتبادلا قبلات أشد برودا:

-اشتريتها من الحلة.

وتوجه نحو ضحوة ولمعة وتبادل معهما القبل وكلمات المزاح. قالت له ضحوة وهي تضربه بلطف على خده:

- لماذا أنت مهزول هكذا؟

-كنت مريضا.

-دع حياة التجوال واستقر مع أهلك واتخذ لك زوجة.

قال ضاحكا:

-الله وأيديكم. جدوا لي زوجة!

تضحك ضحوة:

-امش... امش... أتترك حسان ديرتك وتريد زوجة من غيرهم؟ اذهب الى عمك وهب يزوجك....

ثم توقفت متذكرة:

-لم نسألك عن أحوال أهلنا كيف هم؟

في هذه الإثناء كان راهي وعمته ولمعة قد أخذوا يمشون متمهلين الى البيت. أجابها على سؤالها وهو ينظر الى شداد:

-أتيت منهم مباشرة غير أني مررت بالحلة واشتريت هذه الفرس...

-إيه... أحوالك زينة إبن أخي طلب.

وأكمل قائلا:

-...الكل بخير لكن عمي وهب مريض.

اختفت مسحة المرح من وجهها:

-إيه.....هو طاعن في السن.

ثم جرت نفسا عميقا محاولة استعادة جو الاحتفاء بإبن أخيها:

-لا تغادرنا سريعا...إبق معنا بضعة أيام!

قال محاولا إسماع شداد:

-لن أبقى وقتا طويلا... أنا مررت لمجرد السلام عليكم. سأزوركم فيما بعد في بساتين عبادي.

واستدرك:

-أو قبل ذلك.

أخفاهم البيت عن شداد الذي سمع ضحوة ترد على راهي:

-أوهوو... صار يتدلل عاد.

نظر شداد نظرة أخيرة الى الفرس ولم يتبعهم الى الخيمة رأساً بل أخذ يتمشى مبتعدا عن البيت قليلا، إذ أنه مع انزعاجه لرؤية راهي أثارت فيه الفرس ذكرى بعيدة لم يتوقع أن تداهمه بهذه الفجاءة والقوة، ولهذا كان بحاجة الى بعض الوقت ليكسب بعض التوازن بين احساسين متناقضين بمنحه الفرصة للذكرى أن تأخذ وقتها وتمر.

كان شابا في الخامسة والعشرين أو نحو ذلك حين استدعاه شيخ العشيرة فرّاس ذات يوم تموزي الى مضيفه الذي أمر ببنائه على نمط

مضايف الجنوب من القصب والحصران، وهناك وجد عنده ضيفا عرف أنه ليس من الديار ما أن رآه، بدت عليه آثار النعمة، أبيض الوجه بخدود محمرة. قال له الشيخ فرّاس:

-يا شداد... هذا الشيخ ماهود ضافنا اليوم وقد حكى لي أن فرسا أصيلة ثمينة سرقت منه ويريد أن يستعيدها من سارقيها وقد تعهدت له بإعادتها وأنت من خيرة شبابنا ويمكنني الاعتماد عليك فاسمع من الشيخ ما سيقوله لك ..

رد شداد بأدب:

-الإعتماد على الله يا محفوظ.

فيما التفت الشيخ فرّاس الى ضيفه ليرد على نظرته المتسائلة المشككة في أن هذا الشاب النحيل الطويل ذا البشرة التي سفعتها الشمس، والذي يبدو كعبد من العبيد، يمكنه تحمل مشاق هذه المهمة، ولكن لأن شيخه فرّاس يعرف ما هي الأفعال الجريئة التي قام بها كان واثقا حين هز رأسه للضيف مطمئنا.

وصف له الفرس وما فيها من علامات فارقة بالتفصيل وذكر له المنطقة ولكنه لا يعرف تحديدا في أية ناحية منها يسكنون. قال له الشيخ فرّاس:

-اختر من تشاء من شبابنا ليرافقوك.

أجابه شداد:

-لا أريد معي أحدا. أفضل الذهاب وحدي يا محفوظ.

-ولماذا؟

-الكثرة أدعى الى جلب الانتباه والارتياب وأمور أخرى.

التفت الشيخ فرّاس الى ضيفه وقد تهللت أساريره مزهوا فيما ابتسم الضيف وقد اطمأنت نفسه لما رأى من رجاحة عقلٍ عند هذا الشاب، وأمل خيرا.

لم يتأخر شداد كثيرا ذلك اليوم في عبور دجلة فبعد ساعة أو نحو ذلك نفخ الجود وتعرى تماما على الشاطئ وجعل كيسا من قماش فيه تمرات ورغيف خبز في ثوبه وكوّره ليضعه على رأسه وتحزم على جسده بقطعة حبل ليعلق به العصا التي يسميها قرطة وهي من الخيزران وفي رأسها قطعة حديد، ونزل الى النهر وعبره متمسكا بالجود دافعا نفسه بحركة ساقيه حتى وصل الضفة الأخرى التي كانت عندها بعض النساء تملأ أوعية بالماء. لما رأين جسده العاري تماما والأقرب الى السواد يخرج اليهن من الماء كمخلوق من المخلوقات الخرافية التي طالما سمعن الجدات يحكين عنها في الليالي رمين ما في

أيديهن وهربن وهن يتصايحن مرعوبات. أفرغ الجود من الهواء وطواه ودسه في الكيس مع خنجره وطعامه وعاد للبس الثوب. توارى بين شجيرات السوس وتوجه مع استدارة النهر جنوبا بعكس اتجاه النساء الهاربات.

قضى أياما وهو يتجول في الأنحاء الوسطى بين دجلة والفرات مدعيا أنه راع يريد أن يعمل بالأجرة الى أن لمح يوما فرسا عزلت في معلف خاص تحت سقيفة الى جوار بناء كبير كقلعة مبني باللِبن، والى الناحية الأخرى منه زرائب وحضائر. في تلك الظهيرة لم يوجد عند الفرس سوى رجل مسلح بمسدس ويتمنطق بحزام فيه صف رصاص. جلس على مبعدة على حافة نهر ينظر الى الفرس والى ما حوله. بدا له أن الرجل أحد الحراس عليها، لا يفارقها ويقوم على رعايتها. بعد قليل قرر أن يقترب لينظر الى الفرس عن قرب. سلم على الحارس متظاهرا كالعادة أنه باحث عن عمل. قال له الحارس:

-الشيخ غير موجود لكن يمكنك الجلوس في المضيف الى أن يحضر.

وأشار له الى بناء من اللِبن طولي عند أول الطريق الترابي المنحدر من النهر

-ولكن ألا تعرف إذا كان الشيخ يريد راعيا؟
-لا أدري.... كما قلت لك يمكنك الانتظار هناك وإن شاء الله خير.
-ألا يمكنني الانتظار هنا نتجاذب أنا وأنت أطراف الحديث. يبدو عليك أنك رجل طيب.
- كلا لا يمكنك. إذا جاء الشيخ ورآك هنا يطردني.
في هذه الإثناء نظر شداد مليا الى الفرس وتأكد أنها هي بلا شك. لونها ذهبي بالكامل دون أن يخالطه لون آخر ماعدا العلامات الفارقة التي أخبره بها الشيخ ماهود... بعض النقاط الدقيقة الذهبية الداكنة في الأسفل عند القائمة الأمامية اليمنى ونقطة سوداء كبيرة كالشامة عند عرقوب القائمة الخلفية اليمنى. لاحظ كيف قيدت القائمتان الأماميتان الى بعضهما بعضا بحبل يمتد أيضا ليعقد الى أحد أعمدة السقيفة المثبتة في الأرض.
-هذه الفرس جميلة جدا... هل هي من نسل خيولكم؟
تردد الحارس في الجواب ولكنه رأى أنه لا بأس بأن يجيب على سؤال هذا الشاب المسكين:

- كلا... اشتراها الشيخ من مالكها وباعها الى شيخ على حدود السعودية وربما يصل من يستلمها بين يوم وآخر.

-هل يعمل الشيخ بتجارة الخيول؟

عندها قال له الحارس ساخرا:

-لماذا تسأل؟ هل لديك مئة ليرة لتشتري من خيوله فرسا؟

وربت على كتف شداد:

-...إذهب الى المضيف... إذهب... الشهر الذي ليس لك فيه خبزة لا تعده ولا تعد أيامه.

- كلا... سأذهب الى القرية لشأن من الشؤون وآتي فيما بعد.

إنصرف شداد وهو يردد في سره "سأريك... سأريك أنت وشيخك"

عندما قارب الوقت منتصف الليل كان شداد قد تسلل وكمن في مكان حدده في النهار عند النهر خلف أجمة من الشوك والكسوب تمتد بعدها ساحة فيها كدس تبن وبعده كوم جذوع نخيل ثم مربط الفرس، ودعا الله أن يستره من الكلاب فلا تشم رائحته أو تراه. رأى ثلاثة رجال جالسين متقابلين ومعهم بنادق يتحدثون ويشربون شايا أو قهوة. بعد فترة لم يبق إلا حارس واحد ولم يتبين الى أين

ذهب الإثنان الآخران. انتظر الى أول الفجر. كانت الليلة حارة والهواء ساكنا، وربما كان هذا سببا في أن الكلاب لم تشم رائحته، ولكن مع اقتراب الفجر بدأت نسمات من الهواء تهب. رأى الحارس الوحيد يتكأ على ما بدا لشداد فراشا مطويا لم يمده وبعد قليل سكن الحارس لا تبدر منه حركة فعرف أن النعاس تمكن منه فتقدم نحوه منحنيا في حركته السريعة الى الأرض. أصبح في مكان لا يملك فيه ثانية للتأخير. قفز أمام الحارس وعلاه بقرطته وضربه بها ضربة خلف الأذن فندت عن الرجل أنّة مبتورة وانقلب على جانبه دون حراك. استدار سريعا وقطع الحبل بخنجره، وما أن أحست الفرس أنها تحررت من قيدها حتى تحركت بقوائمها الأربع تريد أن تستدير لتنطلق. عرف شداد، الذي كان يريد أن يستولي على البندقية أيضا، أن تلك اللحظة هي فرصته الأخيرة فإن ضيعها سيكون مصيره القتل بعد قليل خصوصا أن الفرس ستفلت ويفقد فرصته في النجاة. تمسك بعرفها ولم يجد صعوبة، وهو فارع الطول، في أن يقفز الى ظهرها. راحت الفرس التواقة للإنطلاق بفارسها باتجاه النهر ولما سمعت الرصاص يثور اندفعت بسرعة أكبر. كان مطمئنا الى أنهم لن يطلقوا عليه خوفا على الفرس من أن تصاب

وإنما أطلقوا الرصاص لتنبيه العرب. لم يشعر شداد بأي اهتزاز وهي تقفز النهر وكأنها تطير في الهواء. فكر أن أفضل طريقة للابتعاد سريعا عن مطارديه هي تركها على هواها ما دامت تأخذه بعيدا. عندما انكشف الظلام التفت وراءه فلم ير أحدا يطارده ولكنه لم يكبحها وتركها تعدو سريعا أو تبطئ قليلا أو تخب كما تشاء حتى وصل بها دجلة وعبره وهو على ظهرها ولم يتوقف إلا أمام باب مضيف الشيخ فرّاس.

هذا الفعل الذي يحب شداد أن يعده توفيقا ورعاية من الله أكثر مما هو عمل من أعمال البطولة والإقدام عده أبناء العشيرة عملا خارقا وأضاف سببا جديدا لكرهه من قبل الكثيرين منهم، وحتى الآن، بعد أن تغرّب سنينا طويلة، إلا في أوقات قصيرة، عندما يحاول أن يجرب الاستقرار مع العشيرة لا يرى وداً له إلا من أفراد قلائل ويشعر أن أخوته، وهو كبيرهم، لا يقلون عن غيرهم كرها له حتى أنهم يؤجرون جمّالين آخرين لنقل محاصيلهم ويتركون جماله في مراحها، بمختلف الأعذار، ما يدفعه بعد أيام الى شد الرحال والبحث عن رزقه في أماكن أخرى.

كل هذا مر من أمام عيني شداد بسرعة الحلم. لكن في البيت كان يدور حديث هامس مختلف:

-لا أدري لماذا يكرهني خالي شداد هذا الكره... كل مرة ينغص علي فرحتي بمجيئي اليكم.

أمسكته من زنديه بحنان مسترضية:

-إنما هو يخاف عليك من الوقوع في مشاكل. إجلس... إجلس.

جلسوا ثلاثتهم. قدمت أمامه المنقل الذي لا يزال بعض جمره متقدا. التفت الى باب البيت ومن خلال الرواق ليرى أين شداد. أخرج علبة سجائر غازي وزناد. وضع سيجارة في مبسم فضي وأشعلها وسحب نفسا عميقا. فتحت لمعة عينيها على سعتهما لمنظر علبة السجائر الذهبية الجميل ونظرت الى السيجارة المتناسقة التي لا تشبه سجائر والدها الملفوفة بيده والى المبسم الذي يختلف عن مبسم والدها المصنوع من غصن شجرة وغليون أمها التي تحب أن تدخن أحيانا بعد شرب الشاي أو القهوة وتشارك شداد في تبغه. عندما ينكسر غليون ضحوة تراقبها لمعة تصنع لها واحدا جديدا من الطين وتشعل نارا وتدسه بين أعواد الحطب المشتعل ليكتسب صلابة. قدم راهي سيجارة لعمته وأشعلها لها.

-كأني لم أعمل خيرا في حياتي. ألا يذكر حين أنقذنا له، أنا وبدر ابن عمي، أباعره حين أخذتها عشيرة غازية وكان هو ذاهبا الى معمل الطحين ليجلب أكياس الشعير؟

-لا تضخم الأمور. الأمر كما قلت لك... هو يخاف عليك ويود لو تستقر وتتجنب مخاطر التجوال. أنت لا تثبت في مكان أبدا.

-خليه يهذر على كيفه... خليه!

التفتوا عند سماعهم صوت شداد الذي برز لهم فجأة بباب البيت. أشار شداد الى بيوت العرب وقال:

-هل ترى تلك البيوت؟ قبل شهر جاء ضيف الى مضيف الشيخ رضوان...

سكت ريثما يدخل ويجلس على بساط في ناحية من البيت..

-.... حكى أن رجلا في نواحي المسيب كان يحدث عددا من عوائل الرعاة بأنه يمتلك أراضي واسعة في الحويجة وجنوب الموصل تنعم بربيع دائم ويحاول أن يقنعهم بركوب القطار والذهاب قبله الى كركوك فيما يقود هو ورجاله غنمهم وماشيتهم بطريق مختصرة الى مراعيه ويذهب للقائهم في كركوك ويأخذهم الى أرضه. طبعا لم

تنطل عليهم الخدعة السمجة وهموا أن يلقنوه درسا فولى هاربا... وقد وصفه الرجل للحاضرين في المضيف.

ران الوجوم على الثلاثة وهم يستمعون الى شداد الذي عاود الكلام بعد لحظة صمت:

-بالأمس أيضا جاء ضيوف على الشيخ رضوان عصرا وحكوا أن رجلا قتل أحد أقربائهم وأخذ فرسه ووصفوا القاتل والفرس.

نظر الى راهي الذي بدأ وجهه يتغير قبل أن يكمل قائلا ملتفتا الى زوجته وابنته:

-وليس هذا فقط. أخذ زوجته أيضا التي قد تكون رافقته طوعا...

ثم سكت مرة أخرى ناظرا الى راهي وهو يبتسم بأسى:

-لم يعثر عليها بعد ولعل القاتل قدر أنها ستكون عبئا عليه ودليلا اليه تقيد حركته فتخلص منها بطريقة ما في ناحية من هذه البراري الواسعة.

دمدم راهي:

-لا أفهم ما علاقتي بما حكاه هؤلاء؟

-هل ترى؟.... أنظر الى البيوت التي أمامنا جيدا. يمكن لمن يجلس في مضيف الشيخ أن يرى بيتنا.

-لا أدري ما معنى هذا الحديث كله يا خال؟

انفجر شداد بوجهه:

-لست خالك... بعض الأوصاف تشابه أوصافك والفرس التي وصفوها تشبه هذه الفرس...

ثم هز سبابته بوجه راهي:

-اسمع! ربما لا تكون أنت هو ولكني لست مستعدا للتورط في مشاكل وأنا هنا وحيد والناس تحترمني. حاول أن تكف عن حياة الانفلات هذه وكن مع أهلك وانتقل معهم الى حيث ينتقلون، أو أسكن في أي مكان معلوم، لكي تكون في مأمن من التهم والصدف غير السارة.

نهض راهي فاستدرك شداد:

-لا تقل شداد طردني... إنما أنا أنصحك.

- كلا لن أقول أنك طردتني، ولست غاضبا منك، وسأزوركم عندما تنحدرون في الموسم الى البساتين.

لم تستطع ضحوة أن تقول شيئا وهي في ذهولها ولم تتمسك براهي وتمنعه من الخروج خشية أن يكون هو فعلا مرتكب هذه الجرائم أو يشتبهون في أنه مرتكبها. قال قبل أن يخرج:

-سأذهب الى ليرة لأسلم عليها ومن هناك...

قاطعه شداد:

-لا تذهب في هذا الاتجاه لأنك ستصادف أناسا في طريقك وقد يكون ضيوف الأمس لا زالوا هنا فيرونك ويشتبهون في أمرك....

ثم أشار له الى ما وراء البيت وقال:

-انزل الوهدة التي وراءنا تجد بعدها بمسافة قصيرة واديا اسلكه وابتعد آمنا.

بعد أن انصرف راهي التفتت ضحوة الى شداد وسألته

-ألم تبالغ في مخاوفك يا شداد؟

لم يجبها في حينه ولكنه التفت اليها بنظرة تعني "ألم أكن على حق بجعله ينصرف؟" حين جاء جسام بعد ساعة يمتطي حصانا ووقف أمام البيت وسلم ثم سأل شداد:

-أبا نصر... الشيخ يسلم عليك ويقول لك من هذا الفارس الذي كان عندك قبل قليل؟

-سلم لي على الشيخ وقل له هو إبن أخي جاء يتفقدنا ويبلغني ببعض شؤون عشيرتنا وعاد بعد أن حملته رسالة الى الأهل...

هز جسام رأسه مقتنعا بما قال شداد الذي سأله:

-خير... لماذا هذا السؤال؟

- لا... لا شيء ذا بال!

-إنزل، نجلس قليلا نشرب الشاي سويا أبا مبارك.

-شكرا أبا نصر. علي أن أعود لأبلغ الشيخ جوابك، ثم أذهب الى أباعرنا عند الرعيان.

راقب جسام يبتعد بحصانه الأشهب الذي لم يكن عليه سرج بل قطعة من نسيج صوفي.

سألته ضحوة:

-ألا تذهب بعد قليل الى المضيف لترى ماذا هناك؟

- كلا. من الحكمة أن أبقى في بيتي اليوم.

٨

وِلدتْ ليرة في البادية ككل أخوتها، وعند ولادتها كان أهلها نازلين في هذا المكان، أول هواء دخل رئتها هواؤه وأول أرض دبت عليها أرضه فلا عجب أن تألف نفس ليرة هذا المكان من البادية ولا تعرف مكانا غيره ينبض بفرحها ومرحها، ولكن بقدر ما كان انفتاح البادية وطبيعتها المكتنزة بالجَمال، الذي لا يبين لأحد إلا لمن ولد فيها، يبثان الراحة والطمأنينة في نفس ليرة بقدر ما تثير أحيانا مخاوفها بأسرارها والحكايات الدامية التي تولد فيها ومزاجها المتقلب والمفاجئات الملغزة التي تنبثق منها فجأة وتختفي فجأة كما حدث في ذلك العصر وهي تتهيأ للرواح بالأباعر وقد سبقها الآخرون في ترك المرعى وغيبتهم عنها ما تثيره عجاجاتهم من غبار حجب الأفق والبيوت البعيدة التي تلقي عليها الشمس لازورد الميل للغروب.

لقد فوجئت بذلك الجمل ولم تعرف من أين ظهر لها. سمعت أولا هديره المدمدم فالتفت ورأته قادما والزبد يتطاير من فمه ولهاته تندلق من زاوية فمه معبرا عن هياجه فكان أول ما فعل هو أن عض قعودا

عضة طرحته أرضا وكان يهجم على كل ذكر فيعضه أو يضربه برأسه ولكنه عندما يقترب من الأنثى فإنه يشم فرجها. تنحت عنه الأباعر الى منحدر ولكنه تبعها يقفز على الأنثى ويعضها مجبرا إياها على البروك لينزو عليها. فكرت ماذا تفعل؟ خطر لها أن تلوذ بالقودة فهزت حبلها الى الاسفل وفهمت القودة المطلوب فأنزلت رأسها ومدت لها رقبتها كما تفعل كل مرة. أسرعت ليرة الى التشبث برقبتها وبمساعدة الناقة التي رفعتها زحفت ليرة حتى وصلت السنام. صار الجمل يأتي الى القودة يشمها، وليرة فوقها، فيتركها لأنها مرضع ولدت حديثا وليست مهيأة للتزاوج، ويذهب الى النوق الأخرى يشمها فإذا وجد ناقة لم يعلوها ذكر يصرعها ليجبرها على البروك وينزو عليها حتى أشاع البلبلة والاضطراب وتفرقت الأباعر ولم تعد ليرة تعرف كيف سيمكنها جمعها من جديد وقد استولى عليها الرعب من الجمل الهائج من جهة ومن جهة أخرى انتابها القلق على أهلها الذين سيجنون لتأخرها بلا ريب.

كان الليل قد بدأ يحل وفي اللحظة التي استسلمت فيها ليرة الى اليأس إذ لم يعد حولها من أحد يمكنها أن تستنجد به حدث ما أثار عجبها، فكما دهمها الجمل الهائج من حيث لا تدري برز فجأة شاب بيده

عصا طويلة لا ترى وجهه وأخذ يضرب الجمل الهائج بالعصا على وجهه. لم يلتفت الشاب الى ليرة ولم يلق اليها نظرة واحدة بل واصل ضرب الجمل فهدأت ثورته وانساق أمامه الى قلعة الاخيضر حيث دخلا من بابها وغابا عن أنظارها. حدقت ليرة الى القلعة، كانت مظلمة، وهي تعرف أنه لا يوجد رعاة ولا أباعر في القلعة، فمن أين جاء هذا البعير وراعيه؟ تلبستها الهواجس وأخذت ترتجف فتلفتت نحو أباعرها وأخذت تناديها، ودون أن تنتظر اجتماعها حثت القودة على الإسراع فانطلقت هذه خفيفة يحاذيها فصيلها وتبعتها الأباعر الباقية سريعا.

تلقاها أبوها عندما وصلت بلهفة ولوعة:

-أين كنت يا بعد شيبي؟ لقد قلقنا عليك.

حين حكت له ما جرى. جلس يفكر ثم التفت الى حيث جلست ضحوة ولمعة وأجلستا ليرة بينهما فرحتين بعودتها سالمة:

-غدا أستأذن الشيخ رضوان بالرحيل.

سمعنه ولكن لم تسأله أي منهن عن السبب فأمر الرحيل والانتقال من ديرة لديرة سعياً لتحصيل أسباب المعيشة ليس غريبا عليهن وراجع اليه أولا وآخرا، أما هو فقد فكر أن أحداثا متتابعة

حدثت في الأيام الأخيرة كأنها التنبيه له تجعله يفضل الانتقال الى ديرة أخرى، موت الحيزة الذي جعله يميل الى الابتعاد فكلما نظر الى حيث رقدت يتملكه حزن شديد حتى أنه تجاهل تلميحات ضحوة المتكررة يومها الى إمكانية الإفادة من جلدها، ومجيء راهي المشؤوم الذي كاد أن يوقعه في مشكلة كبيرة، وما حدث لليرة اليوم كان أشد عليه مما سبق فلو أن مكروها حدث لها فإنه بجسمه المتداعي هذا وبصره الآفل لن يستطيع عمل شيء وكانت ستضيع منه مع ما يعقب ضياعها من عار في أخريات عمره لن يمهله طويلا وسيموت هما وكمدا. صمم على أن ينحدر الى البساتين جوار منطقة ريفية وينظم شؤونه للاستقرار بطريقة ما دون التخلي عن حلاله. لقد قضى شهرين هنا وسط عشيرة مضت أجيال منها وهو ينزل معها وقد صادف أنه نزل معها للربيع في سنوات متتالية منذ زمن والد رضوان عندما لم يكن قد ولد الكثير من أبنائهم الذين بلغوا الآن مبلغ الرجال، وقد حظي باحترامهم وحمايتهم دائما كأنه واحد منهم.

قبل شهرين، وكما هي العادة عند العرب قصد الشيخَ رضوان وتربع أمامه وقال له:

-أنا بوجه الله وبوجهك... أنا وحلالي وعيالي.

فقال له الشيخ، كما يُتوقع من أي شيخ، أنت في جوار الله وجواري إن شاء الله.

غدا يحله شداد من جواره هذا ويودعه ويرحل.

في الصباح ترك ضحوة والبنتين يطوين الأغراض ويحضرن للرحيل وقصد مضيف الشيخ. وجده جالسا والقهوجي أمام المضيف يعد القهوة. لم يجد الكثيرين عنده، وجد فتيين من ابناء الشيخ منشغلين في أقصى المضيف بحديث خاص. كان رضوان ينظر اليه من مسافة قبل أن يصل وما أن سلم حتى أشار له بالجلوس الى جانبه وقد بدا أن لديه ما يريد أن يقوله لشداد.

-كيف حالك؟

-بخير يا محفوظ. عافاك الله وسلمك من كل مكروه.

عاد رضوان الى النظر أمامه وعقد أصابع يديه في حضنه وتأمل قليلا قبل أن يقول:

-بالأمس كان الضيوف الذين رأيتهم لا يزالون عندي وقد رأوا فارسا يتوقف عندك شبهوا فرسه بالفرس التي لقتيلهم.

نظر اليه شداد بهدوء وقال:

-قلت لأبي مبارك أنه إبن أخي وقد جاء لتبليغي بشيء وانصرف.

-نعم قال لي.... وأنا أرسلت جسام اليك إرضاء لهم وتأكيدا على ما قلته لهم من أن الأمر لا يعدو الشبه وقلت لهم تلميحا إذا أرادوا البحث عن مشتبه بهم ففي مناطق أخرى إذ أن هذه العشيرة لا تأوي القتلة والفاسقين.

سواء كان الشيخ يلمح له من طرف خفي بأنه قام بما يملي عليه حظه وبخته كشيخ من حماية الجار أو كان صادقا تماما فإن كلامه أوجعه فقال:

-على كلٍ حصل خير وجزاك الله خيرا..

ثم تنحنح وأكمل:

-لكني يا محفوظ جئتك اليوم لأمر آخر..

-قل يا أبا صبر!

-لقد أجارني أبوك رحمه الله وأجرتني أنت مرارا وتكرارا وليس من مكان أود النزول فيه أكثر من جواركم ولكن ظروفي تفرض علي الآن أن أستأذنك بالرحيل...

-ولماذا الرحيل والربيع سيحل؟

-لقد كبرت وضعف بصري وليس لي ولد يدير شؤوني ولم تعد حياة البادية تصلح لي.

-في حفظ الله ورعايته.

لم يقل له كما قال في العام الماضي "إذا أردت البقاء نحن بالخدمة وشبان العشيرة كلهم أولادك" مع أن شداد لم يقل له آنذاك ما قاله اليوم. هو يعرف أن رضوان لا يظن به السوء لكي يُسرّ لرغبته في الرحيل بل رجح أنه لم يحاول ثنيه عن عزمه لأنه يخشى أن يعود أهل القتيل الى هنا إذا حصلوا على دليل أو خبر ويتذكروا رؤية الفرس ويتعرض شداد الى مساءلة قد تكون نتائجها ليست في صالح شداد الذي خرج من عنده وهو يرى أنه من الأفضل لو استطاع الرحيل اليوم قبل الغد.

٩

باتوا الليلة الثانية في رحلتهم على مشارف المحاويل تحت خربوش[١٢] ابتنوه سريعا حين فاجأتهم زخة مطر وفي الصباح ساروا على أرض سبخة قاصدين شيشبار ومنها بمحاذاة سكة القطار نحو برية غنية بشجيرات الأثل والشوك والطرطيع، وهي أرض مفتوحة كذلك لمن يستطيع الصيد ففيها أنواع الطيور المستوطنة والمهاجرة ويوجد نهر قديم يجري فيه الماء دائما. وجدوا صعوبة في الخروج من الأرض السبخة بعد أن أمطرت حتى كاد الحمار أن ينزلق ويقع مرات حين يعبر منحدرا حتى خشيت ضحوة أن تتكسر أواني الشاي التي لا تضعها في عدل البعير بل في خُرج الحمار حرصا عليها.

كان في بال شداد مكانان للنزول وقضاء الربيع، الأول غرب شيشبار حيث توجد برية مليئة بالعشب والشجيرات الموسمية، والثاني شرقا في الأراضي الواقعة في المنطقة الوسطى بين دجلة والفرات جنوب هور رجب وهي أراض يعرف منذ السنة الماضية أنها لا زالت خالية من عربان الفلاحين. وقع اختياره على الأقرب اليه بعد عناء الليلة المطيرة. وجد شداد في تلك السنة عشيرة بكاملها قد سبقته

[١٢] - خربوش بيت شَعر (خيمة) أيضا ولكنه صغير واطئ قد لا يتجاوز المتر ونص ارتفاعا ويكون عادة للسكن المؤقت للراعي في المرعى أو للفقراء من البدو.

الى تلك الأرض التي لم يكن يرى فيها إلا رعاة متفرقين في السنوات الماضية فصار لزاما عليه أن يطلب جوار شيخها الذي لم يرتح له أبداً ما أن وقع بصره عليه، رجل بدين متأنق يبدو عليه حب الأكل والتسلط.

إلا أن شداد قرر بعد أيام الارتحال من جديد إذ تبين له أنه اختار منزله في وسط بيئة غير مريحة.

كان اللص فردا من أفراد عشيرة الشيخ، وقد ميزته ليرة في اليوم التالي عند مضيف الشيخ وألحت على أبيها أن يشكوه لكنه رفض وأسكتها وهو على يقين من أنها صادقة وإن لم تر وجهه وهو ملثم في الليل ولكنها كانت قريبة جدا منه وقد أمسكها من لبادتها، قطعة القماش التي تخاط باليد وتحشى بالقطن أو الصوف وترتديها النساء كالروب، فهزها هزا قويا محاولا خلع اللبادة وكانت هي تصيح وتستنجد بأبيها وشداد لا يقوى على أكثر من محاولة إخافة اللص بقوله "أنا أبو صبر...أنا أبو صبر... ويحك أيها ... أيها النذل...." ويحاول القيام متوعدا، ولكنه قدر أنه إذا اشتبك مع اللص فستكون النتيجة ربما أسوأ عليه وعلى ابنته، ومن جانب آخر فإنه إذا حاول

استخدام مسدسه فلن تكون النتيجة إلا كارثة إذا أخطأ، واكتفى بإطلاق كلمات الوعيد.

لكن اللص كان مطمئنا الى أن شداد لن يستطيع فعل شيء فكان يتصرف على راحته غير متعجل، فلما لم يفلح في إنتزاع اللبادة رمى بليرة أرضا على طين خلف البيت وأخذ كيسا من القماش فيه خاتما فضة أهدتهما لها أختها لمعة ومعاضد صنعتها لها من الخرز الملون قبل أن تزف الى زوجها، فيما ساق رفيق له في هذه الأثناء حمارهم وحمل معه أواني منزلية من بينها الأواني الأثيرة عند أمها... أواني الشاي والإبريق ومعها السكر والشاي، فهي تشتهي دائما شرب الشاي والقهوة وهي تدخن بغليونها الطيني.

لم تكن العجوز ولمعة حاضرتين في تلك الليلة فقد ذهبتا مع بعض النسوة الى معمل الطحين البعيد لطحن القمح، وتركت الحمار لأنه لا يقوى على حمل كيس الطحين واستعارت حمارا حساويا من إحدى جاراتها، ولكن السماء أمطرت مطرا مفاجئا فخشين أن يرجعن ليلا الى بيوتهن في الطريق الموحل وبتن مع دوابهن عند المطحنة. لما عادت ضحوة صباحا وهي تمني النفس بجلسة دفء على نار جمرية يغلي فوقها ويطقطق إبريق الشاي بادرتها ليرة بالخبر

فتحزمت بعباءتها، وهي السليطة اللسان البرزة التي لا تهاب منازعة الرجال، أجبرت شداد على الذهاب معها ممسكة إياه من يده وذهبت به ومعهما ليرة. دخلت الى الديوان متوجهة الى الشيخ:

- يا محفوظ أعزك الله... لقد نزلنا في جوارك وهذا رجلي شيخ ضرير لا يقوى على المشي وقد سطا علينا ليلا لص نظنه من هذه الديرة وأخذ الحمار الذي أضع عليه الأواني التي لا يمكن أن توضع على البعير عند الرحيل لأنها تتكسر عند مشيه وبروكه ونهوضه، فهلا تعيدون الينا حمارنا وأوانينا وحاجاتنا التي سرقها منا.

لكن الشيخ الذي يبدو أنه كان يصانع السفهاء ويحابيهم زم شفتيه متضايقا ونظر باحتقار الى ثلاثة أمامه رثاث الملبس قد أدخلوا الطين بأقدامهم على الحصران المفروشة وسط المضيف وقال على مضض:

- لا يوجد لدينا هنا لصوص، ولكننا سنبحث في الأنحاء وقد نعثر على المسروقات.

فسألته ضحوة وقد أيقنت أن جوابه مقدمة لتضييع حقها:

- وإذا لم تجدوها؟

نظر اليها الشيخ نظرة من ينكر عليها جرأتها على جداله:

- وماذا أفعل لكم؟ أمركم الى الله... الله يعوضكم.

عندها أطلقت ضحوة لسانها الذرب بذم الذي لا يرعى الجوار ولا ينجد المستغيث ويصانع السفهاء والشيخ ينظر اليها شزرا حتى أنهت كلامها وخرجت مع شداد وليرة.

كانت ليرة طوال الوقت ترمق رجلا جاء وجلس في الديوان وهي على ثقة من أنها تنظر الى الرجل الذي سطا عليهم، عرفته من مشيته ومن طوله وقد أحنقها كثيرا نظره اليهم وهو يمسد شاربيه ويتبسم مستهزئا.

في الطريق الى البيت ظلت تقسم لأبيها أنه الرجل وأبوها يسخف كلامها، وفي حقيقة الأمر أنه لم يكن يرغب في دخول مواجهة عرف من كلام الشيخ أنها لا طائل من ورائها، ولكن ضحوة أرادت العودة فأمسكها من رسغها مسكة تدل على أنه لم يفقد الكثير من قوة يديه:

-لا تفعلي يا ضحوة... لن يعطيك الحق، وقد يطردوننا من هنا ونحن لسنا مستعدين الآن للرحيل. أما عن الحمار فسأبيع من ماعزنا ما يكفي ثمنا لحمار نشتريه. اختاري ما تشائين من المعز وبيعيه واشتري الحمار الذي تريدين.

اقتنعت ضحوة بكلامه وسرها هذا الكرم المواسي منه فقد عرفته طوال حياته يعشق أباعره وماعزه حد البخل، وهو أرفق بها من رفقه بعياله وكان يعمد لإكثارها الى بيع البعير الكبير ليشتري بثمنه إثنين صغيرين، أما الماعز فيحب تربيته لأنه يلد توائم.

يخرج الراعي الذي استأجره أبوها بالجمال بعيدا ليرعاها في الأرض الفضاء على مسير ساعتين من منزلهم ويعود بها كل بضعة أيام للراحة والتزود بالطعام أو يبعث رجلا يجلب له الطعام وللرعاة الآخرين الذين استخدمهم أصحاب الجمال الآخرون. أبقى شداد الماعز عنده ولم يسلمها الى راع وكان يذهب هو بها يدب على مهل عندما يرى نفسه في مزاج وصحة مناسبين الى أرض معشبة قريبة ومعه الكلبان اللذان يحوشان له المعز عند تفرقها ويعيدها الى قربه ولا يترك بناته يرعيان في الريف إلا عند الاضطرار، فهو لا يرتاح لأناسه وأخلاقهم ويبدون له أقرب الى أخلاق الحضر. الحقيقة أن شداد إذا كان مستاء من أخلاق أهل الريف فهو يكره الرعاة دون استثناء فلم يعمل واحد منهم عنده من قبل إلا وطمع في أن يزوجه إحدى بناته بعد فترة وجيزة. يعطي ابنته لراعٍ؟! يا للهول! فيطرد شداد الراعي من فوره قائلا له:

-اذهب يا ابن أخي.. هذا حقك... لم أعد بحاجة اليك.
ويعطيه ما اتفق معه عليه من أجر حتى ولو لم يكمل المدة.
*

قضوا يوما ونصف نهار ليصلوا الى غايتهم وهناك أيضا وجد عشيرة سبقته الى الأرض وقد طلب كالعادة المتبعة جوار شيخهم. تلك الأرض أنسب الأماكن لغايته في رأيه آنذاك ويوجد له معارف فيها ليسوا بعيدين صاحبه صحين أحدهم. نزل من جانب النهر حيث لا توجد أراض مزروعة ورتب أموره للاستقرار أطول فترة. تعرف على من حوله من رعاة الغنم والإبل وكان يعرف بعضهم سابقا إذ صادفهم في أماكن أخرى من قبل، أناس مثله من عشائر مختلفة لم ترق لهم الحياة في عشائرهم وعتقوا أنفسهم من صلاتها وتكاليفها، وقد اتفق مع هؤلاء على أن يعهدوا بإبلهم الى رعاة مضمونين مقابل أن تكون لهم حصة موسمية من الولادات ومن الأباعر الذكور. يوجد رعاة آخرون من أهل الديرة يربون الأغنام والماعز وأقرباء لصديق شبابه الذي يدعى صحين والذي طلب منه لمعة لإبنه الأكبر قبل سنتين عندما صادفه في مقهى بالمحمودية التي قصد شداد سوقها ليشتري بعض الشاي والسكر وكذلك مستلزمات الدبغ لعمل

الشكوة، واطلاقات احتياطية لمسدسه، وبعض الحلوى والزينة والأدوات التي أوصته ضحوة أن يشتريها. دعاه صحين الى بيته يومها وأولم له وليمة دعا اليها أيضا بعض جيرانه قبل أن يختلي به ويطلب لمعة لإبنه.

يعرف شداد أن صحين، الذي رافقه زمنا وخبره جيدا، لم تكن غايته المصاهرة مع صديقه القديم ليمد علاقته معه بدم جديد حباً به فقط بل أراد لمعة أيضا ليفيد منها في بيته وأرضه وقد رآها مرة تحمل كيس الطحين الذي قد ينوء به الرجل إذا أراد حمله وتضعه على الحمار دون عناء كبير، وفكر أنه لو تمكن من أن يأخذها زوجة لإبنه فإنه سيكون مكسبا عظيما. شداد يعرف هذا ولم يشك في أن صحين سيعاود المحاولة إذا علم بنزوله هنا إذ لم تنجح محاولته تلك المرة واعتذر له شداد بأنه بحاجة اليها وهي بالنسبة له بمثابة الولد.

*

بعد أيام في ضحى بارد جلس شداد وضحوة والبنتان حول الجمر الذي اعتلاه ابريق الشاي، ضحوة تدخن بالغليون وهو يلف السجائر ويحكي لهن عن السمكة العظيمة التي دخلت تحت سفينة للانكليز في نهر دجلة وصعدت السفينة عليها فلم تستطع التقدم ولا الرجوع

الى الخلف، وباءت كل الجهود لتخليص السفينة بالفشل، فما كان من القبطان الذي يسميه شداد "الصوجر الكبير" إلا أن يأمر بأن ينزل عدد من العمال بسكاكين ويشرعوا بتقطيع السمكة وتوزيع لحمها على الناس وقد أمضوا نهارين يقطعون باللحم حتى حصلت كل العشائر المحيطة على كميات كبيرة من اللحم، واستطاعت السفينة بعد ذلك مواصلة طريقها. نظرت لمعة وليرة الى والديهما منبهرتين بما سمعتا وهما تحاولان تخيل حجم السمكة وحجم السفينة وكيف كان هذا الحدث العجيب، ولم يشعر شداد وأهله إلا والرجال قد وصلوا قريبا من البيت حين نبحهما الكلبان.

عندما نزل شداد منزله هذا رتب بيته ذا العمودين الوسطيين فوسعه وجعلها ثلاثة وصار أفضل مما كان عليه في منازله السابقة إذ جعل رواقا داخليا يفصل بين محرم ومضيف. أسرعت ضحوة والبنتان الى المحرم فيما دخل ستة رجال المضيف يتقدمهم صحين.

ما أن جلسوا وتبادلوا مع شداد كلمات الترحيب والشكر والسؤال عن الصحة والأحوال حتى استأذنهم شداد كأنه يريد الذهاب لقضاء حاجته ولكنه عمد، متحاملا على نفسه وهو يشعر بصحته تسوء يوما بعد يوم، الى ذبح جدي من الماعز الذي كان يرعى قرب

البيت فلما أحس صحين بذلك قام خلفه وأقسم عليه أن يترك كل شيء ويعود للبيت وكلف شابين من الرجال الذين جاءوا معه بأن يقوما بكل شيء حتى الطبخ في مكان قرب النهر، وهكذا جهزهم شداد بمستلزمات الطبخ وبالرز فيما كانت ضحوة تعاونهم وتحضر لهم ما يحتاجون. عندما عاد شداد وصحين الى الجلوس نظر صحين الى شداد وتبسم ثم قال:

-يا أبا صبر.... أنت وأم صبر لم تعودا قادرين على تعب الضيافة والوليمة وحقكما علينا، بل إنك وعائلتك ضيوف علينا.

رد عليه شداد:

-يا صحين ... أنا شداد الذي تعرف. أتقول عني لم أعد قادرا على الضيافة؟ والله إني لأقوى منك وليس بي من ضعف سوى غشاوة تنتاب نظري بين الحين والآخر.

فضحكوا جميعا. أشار صحين الى شداد:

-أترون هذا الشيخ الذي لا يريد أن يعترف بأنه أصبح عجوزا؟ لم يكن يوجد شاب في هذه الديار كلها على جانبي دجلة أكثر قوة وجرأة منه...

حكى صحين لأصحابه كيف أن صحين كان هو وجماعة يكمنون لقطار البضائع الصاعد من الكوت الى بغداد أو النازل من بغداد الى الكوت. كان شداد يصعد من المحطة الى عربة من عربات القطار المكشوفة أو فوق العربة ويظل مختبئا الى أن يصل القطار الى الموضع المتفق عليه ويبدأ بإلقاء ما تصل اليه يده من البضائع بأنواعها الى أصحابه الذين يجمعونها خلفه سواء كانت تبغا أو أطعمة أو سلاحا للقوات الإنكليزية الى أن يصل القطار الى مكان يبطئ فيه فيقفز منه ويعود. يبيعون السلاح فيما بعد ويتقاسمون ثمنه أما الطعام فيوزعونه على عوائلهم.

-... وإذا كنتم تريدون النظر الى رجل كان يجاري الفرس في عدوها، رجل عبر نهر خريسان قفزا... فهو هذا الرجل.

نظر الرجال الى شداد متعجبين وهم يتساءلون إن كان صحين يبالغ في وصفه ومديحه لشداد ولكن كان عليهم أن يتخيلوا الشيخ الذي أمامهم على ما كان عليه قبل أربعين وربما خمسين عاما ليبدو ما يقوله صحين معقولا فكل شيء في هيئة الرجل ينبئ بأنه كان يوما شابا فارع الطول شديد السمرة، جسمه كأنه مكون من عظام وعضلات فقط، وهو حين يجلس مقرفصا فإن ركبتيه تكونان أعلى

من رأسه، ولا زال كل شيء فيه، برغم شيخوخته، من طريقة كلامه وحركاته في جلوسه وقيامه تؤكد أنه فيما مضى كان شخصا مهيبا. لكن شداد قال مبتسما بارتباك:

-لا تصدقوا كل ما يقول صحين. إنه يبالغ.... لقد كان عرض النهر في ذلك المكان لا يزيد عن أربعة أمتار وأنا رجل طويل القامة ولي ساقان طويلتان وكنت خائفا، والخوف يعبر بالخائف كما تعلمون...

غير أن صحين لم يعبأ بتهوين شداد من شأن الواقعة واسترسل ضاحكا:

-إنه لا يحب أن يمتدحه أحد ليس إلا...

وشرع يحكي لهم عن هذا الرجل الذي ذهب ذات مرة الى ناحية من ديالى للسطو على قرية هناك مع صحين ورجل ثالث من أصحابه. ترك الثالث في مكان معلوم وحدد مكان المثابة عند الجمدة، وهي مرتفع ترابي، إذا اضطروا للتفرق. كان هدف شداد الأول هو سرقة بندقية تحدى صاحبها بأنه يستطيع سرقتها منه وتركه أشهرا ليظن الرجل أن التحدي كان مجرد كلام فارغ. ثم، إذا نجح في سرقتها وسارت الأمور على ما يرام، يمر بحظيرتهم ليسرق أحد ثيرانهم فيما

صحين ينتظره في الخارج. كان صاحب الدار شابا أعزبا وليس معه في البيت سوى شقيقة له. وجد الشاب نائما في باحة البيت ولكنه لم ير شقيقته فتوجه بخطوات القط الى الغرفة حيث ينضدون الفراش على محمل وحيث أول ما يتبادر الى الذهن أن البندقية تخفى بين طيات ذلك الفراش، ولكنه لم يستطع أن يكمل توجهه الى محمل الفراش إذ ما أن دخل حتى طوقته ذراعان قويتان بحصير شل حركته وظلت ذراعاه الى جانبي جسمه لا يستطيع تحريكهما. التفت فعرف برغم الظلمة أن الفتاة هي صاحبة هذه التطويقة الجبارة. لحسن الحظ ذهلت عن مناداة أخيها أول الأمر وظلت تحاول إحكام السيطرة على شداد الذي أخذ يطوح بها وهو يريد تحرير يديه. أخيرا نجح في أن يستل خنجره ويوجه الى ثدي الفتاة وخزة فندت منها صرخة وأفلتته. ركض خارجا ليجد شقيقها قد استيقظ وأخرج بندقية من تحت فراشه. توجه شداد نحوه مباشرة وضربه وهو يركض بالقرطة على رأسه ضربة قصد منها إرباكه حتى يستطيع الوصول الى الجدار الذي يبلغ ارتفاعه مترا ونصف المتر ويقفزه. استيقظت القرية كلها على صوت الرصاص الذي أطلقه صاحب الدار خلف شداد، وامتطوا الخيول وشرعوا بمطاردة

الرجلين ومعهم كلاب القرية كلها. لم يتوقع شداد وصاحبه أن تجري الأمور هكذا. قال شداد لصحين:

-إذهب واعبر من على القنطرة وسأضللهم عنك فأنا أسرع منك وسألتحق بكما فيما بعد.

لكن شداد حين عاد باتجاه القنطرة وجد فرسانا قد سبقوه اليها بخيلهم وهم متأكدون أنه لا سبيل له للعبور إلا من هنا. شاهدوه من بعيد على ضوء الفجر فعادوا الى مطاردته. ركض بأسرع ما يستطيع والى أبعد ما يمكنه غير أنه بالنتيجة أصبح لزاما عليه أن يعبر نهر خريسان فاستجمع قواه وجاء منطلقا بأقصى سرعة وقفز فإذا به في الناحية الأخرى من النهر وقد تمزق من الجانبين أسفل ثوبه الذي كان قد رفع طرفه وشد عليه حزامه ولكنه أفلت لسرعة ركضه وقوته، فيما توقفت الخيل عند النهر. التفت نحوهم فرآهم ينظرون الى بعضهم بعضا مندهشين.

جال صحين بنظره في الجالسين بعد أن أورد هذه التفاصيل وقد بان على وجهه الحماس لهذه الذكريات وهزته الإثارة. ثم قال:

-أتظنون أن هذه روايتي أنا لما حصل؟ اذهبوا الى تلك القرية واسألوا أحد كبارهم سيخبركم بهذا كله وأكثر منه.

أراد شداد أن يغير الحديث الى موضوع آخر فقد أشعره بالحرج ذكر صحين لأعماله البطولية ومديحه له:

-إيه يا أبا سعدون... دع مدح رجل قد تحتاج مذمته!

-وهل مثلك يُذم يا أبا صبر... مع الأسف عليك.

جاشت عواطف شداد وهجمت عليه الذكريات فأراد أن يدفعها ويبددها بالشروع في موضوع آخر:

-وأين سعدون؟ لماذا لم تأت بأولادك معك لنراهم؟

-هو أحد الشابين اللذين يطبخان طعامك.

-أيهم؟

-الذي يرتدي زبونا أزرق ويعلق في نطاقه مسدسا.

-لا أتذكر أني رأيته عندما دعوتني الى بيتك قبل يومين.

- كان في الحصوة لينجز لي بعض الأعمال.

-إنه أصغر مما تصورت. أتزوجت متاخراً إذن يا صاحبي؟

-أجل.... الحمد لله.

-سأرى هل أكملت أم صبر خبزها.

أمسكه صحين من رسغه:

-أنت لا عليك... أوصيته أن يجلب خبزا من بيتنا بعد أن ذبحت الجدي وكنت أنا قد نويت أن أصنع طعاما لكم عندنا وأوصيتهم بذلك قبل أن نأتي اليك ولكنك سبقتني وذبحت الجدي...

وربت على يد شداد:

-ما دمنا هنا لن تقوموا أنتم بأي عمل.

تمتم شداد بكلمات الشكر.

بعد أن انصرف الضيوف جاءت لمعة وجلست على يمينه وليرة الى يساره وتعلقتا بكتفه وهما مبتهجتان فقد سمعتا كل ما قيل:

-يبه... أصحيح أنك فعلت كل هذه الأفعال؟

-لماذا لم تقصها علينا؟

-كم كانوا نخورين بك؟

لم يذكر له صحين شيئا عن الزواج في ذلك اليوم لأنه رأى أنه من غير اللائق أن يتحدث معه بشأنه وهو نازل هنا للتو، وكان قد تحدث معه سابقا، ولكنه بعد أيام عاد وعرض عليه أمر الزواج، وإذا كان شداد قد اعتذر اليه قبل سنتين فإن الوضع قد اختلف الآن. شيء ما في كيانه أصبح يوحي اليه بأن عليه أن يجعل بنتيه تعيش كل منهما حياتها الخاصة ليواجه نهايته وقد تحرر من كل الأعباء، ومهما

كان تفكير صحين باتخاذ لمعة زوجة لإبنه انتفاعيا فهذه سنة الحياة وصحين لا يرتكب جريمة ومن المستبعد أن تجد لمعة أفضل من هذا الزواج.

وعده شداد بأن تكون لمعة زوجة لإبنه سعدون ولكنه استمهله بعض الوقت، بعد الربيع تحديدا، قبل أن تزف. الحقيقة أن شداد طلب هذه المهلة ليروض نفسه على حقيقة هي بديهة من بديهيات الحياة الأكثر قساوة، بديهية أن ابنته لا بد أن تفارقه يوما وتذهب الى بيت آخر زوجةً وتصبح فردا من أفراد عائلة أخرى.

١٠

حدث ما جعل شداد يائسا حتى من جدوى هذه الحياة التي اختارها مؤخرا، وكان ذلك اليأس هو الذي دفعه الى التفكير بالتخلي هذه المرة عن حياة البداوة كليا.

عندما تتبع راهي أثرهم ووصل اليهم لم تكن لمعة قد زفت بعد. جاء سيرا على الأقدام ولم يكن هذه المرة راكبا فرسا كالمرة السابقة. حين سمع شداد صوته وهو يسلم على عمته والفتاتين لم يشعر كما يشعر عادة إزاء زيارة غير مرغوب فيها بل شعر ببعض الراحة التي تبعثها فرصة التسرية عن النفس إذ كان الملل من الحياة اليومية التي صار يقضيها إما متدثرا في فراشه أو جالسا لا تسلية له سوى لف السجائر وتدخينها وتبادل بعض الكلمات مع ابنتيه وأمهما، وسوى التمشي بين ماعزه السارح قرب الخيمة لا يجد شيئا جديا يقضي به بعض الوقت، ولا مزاج مناسب له أن يخالط أحدا، حتى أنسباءه الجدد، وهكذا ما أن سمع صوت راهي أزاح الى الخلف دثاره واعتدل جالسا فيما كان راهي يصب لنفسه ماء في الطاس من الصميل المعلق على عمود ركن البيت، يشرب منه ويصب ما تبقى في راحة يده ويرشق وجهه به ويمسحه بطرف غترته ويتقدم من شداد يسلم عليه وينحني

ليقبله وهو جالس ثم يتحول على الفراش الى جانبه. استند على الارض براحة يده اليمنى قبل أن يستقر جالسا الى جانب شداد على البساط الصوفي السميك. نظر اليه شداد مليا وسأله:

-كيف حال مَنْ وراؤك من الأهل... عسى أن يكونوا بخير؟

دفع راهي غترته البيضاء وعقاله الرفيع الى الخلف كاشفا عن جبينه ومقدمة شعر رأسه الأشقر:

-بخير.

-لقد تعبت الى أن وجدتنا.. هاه؟

-لقد ذهبت الى حيث كنتم عند الأخيضر ثم انحدرت الى كربلاء ظنا مني أنكم قصدتم بساتينها...

-لا نذهب في مثل هذا الوقت الى البساتين.

قال شداد ذلك بنبرته الجافة التي أَلِفَها راهي ولم تعد تزعجه..

-ولكني رأيت عمالا يعملون في بساتين شيشبار.... ماذا يفعلون؟

-نعم. هذا عمل بضعة أيام. إنهم يكرِّبون النخل الفتي فقط... لكنهم قد بكروا وربما شرعوا بهذا العمل قبل الأوان فلا يزال يوجد احتمال لسقوط الأمطار.

أبعد راهي حذاءه المعمول من النسيج القطني القوي الى الجانب فقد كان أمامه تقريبا وقد علق بنعليه بعض الطين وهو قادم عبر البرك والجداول. دفعه ليكون عند الستر..

-تكريب النخل فتيا كان أو بالغا... المهم عمل يا خال.

لم يرغب شداد بأن يعيد القول أن هذا العمل لا يستمر أكثر من بضعة أيام وبكميات قليلة ولا يحتاج معه أهل البساتين الى تأجير وسيلة نقل لبيعه فهم يحتفظون بالكرب والسعف لهم. ظل ساكتا يسحب نفسا عميقا من سيجارته اللف. لكن راهي بعد أن نظر حوله في البيت ونظر الى عمته ضحوة ومعها ليرة منشغلات بإصلاح وضع ما جمعنه من الشوك والشجيرات الصغيرة على شكل سياج دائري لجعل صغار الماعز وأمهاتها داخله في الليل في ركن البيت وجعلن الفتحة الى جهته، التفت مرة أخرى الى شداد:

-والعلاوي؟

نظر شداد بعينيه الغائمتين الى راهي وأبعد مبسم السجائر عن فمه بعد أن كان غاطسا في شعر شاربيه الكث:

-أين كنت هذه المدة؟ هل كنت نائما؟

وهز يده التي يحمل بها المبسم هزة كانت تعني التعجب أكثر مما تعني الاستهزاء:

-لم يعد أحد من أهل العلاوي يرغب بكَرْيِ الأباعر. توجد الآن لوريات أخذ التجار يستوردونها من الإنكليز الملاعين منذ نهاية الحرب. كل لوري يتسع لحِمْل عشرة أباعر وأكثر، وصارت هي وسيلة النقل المفضلة الى علاوي بغداد والقريبة منها، وقريبا لن تجد علوة في طول العراق وعرضه تستعمل الأباعر. لم يبق لنا سوى بضعة أعمال متناثرة وموسمية لم تزحف عليها هذه المكائن العجيبة...

أراد راهي أن يستند بظهره كما اعتاد في بيوت أهله الطينية، التي أخذوا يبنونها مؤخرا محتفظين ببيوت الشعر للخروج الى البادية في الربيع، ولكنه تذكر أن الستر لا يتحمل الاستناد اليه فعاد الى جلسته المعتدلة:

- أجل ... مثل العمل في البساتين في موسم جني التمر......

ثم أضاف بحماس وبابتسامة عريضة كأنه يكشف عن أمر غاب عن بال شداد وبذلك يشتفي لنفسه من استهزائه به قبل قليل:

-والممالح؟

التفت شداد التفاتة ظنها راهي إجفالا:

-المالح؟ غرب كربلاء في هذا الشتاء؟

-فإعطني عددا من أباعرك ودع واحدة من ابنتي عمتي تذهب معي الى هناك ونعمل في نقل الملح، ونكسب لك مبلغا من المال محترما...

ضحك شداد ضحكة جشاء من القلب فالتفتت ضحوة والبنتان وقد ارتسم على وجوههن الانشراح لهذا المرح المفاجئ الذي لم يتوقعنه من شداد المقطب الكئيب عادة... لم يكن يسمعن ما يدور بين الرجلين، وسرعان ما عدن الى شغلهن، ولكن لو قُدِّر لهن أن يعرفن ما يدور بينهما لما فات أي منهن معرفة سبب ضحكة الشيخ الحذر بطبعه. إن ما طلبه راهي بالنسبة الى شداد هو من قبيل المستحيل أو من قبيل الصبيانيات التي تثير الضحك في أحسن الأحوال، مع ذلك، لو افترضنا معقولية الطلب، فهو من جانب آخر لا يثق بأحد، مهما كانت قرابته، فيسلمه قسما من أباعره العزيزة وابنته ليذهب بها الى مكان قصي كالمالح. لقد علمت الحياة شداد أن يذهب بشكوكه أو توقعاته الى أسوأها ويتخذ الحيطة لها. إن حماقة من حماقات راهي الأهوج لن تكون هي الأقل سوءً بأية حال، وسيكون على شداد أن يقبل بواقع جرته عليه غفلته ويقبل بابنته زوجة لراهي الذي يكون

قد استفرد ابنته وتدبر أن يقنعها بأن تكون زوجته... نظرا للحال التي يعيشها وعائلته وللحفاظ على السمعة فأغلب الظن أن شداد لن يثير مشكلة بل سيتظاهر بالمباركة والقبول وسيلفق قصة للزواج يرويها للناس. ربما هو مبالغ في هذه المخاوف ولكنها، كلها أو بعضها، ممكنة الحدوث على وجه من الوجوه أو لعل السماح بأن تكون أباعره وابنته بعهدة راهي بهذا البعد هو بحد ذاته سببا للقلق على حلاله وابنته وسيقضي الليل وهو يتخيل أشكالا من المخاطر تتعرض لها.. هذا إذا وافق!

-هل جننت؟.. هاه!

قال "هاه" هذه المرة باستهزاء هازا رأسه.

قال راهي مظهرا أمارات اليأس على وجهه:

-أنت لا تعطيني يا خال مجالا لأثبت لك أني نافع لك ومفيد.

-اعرض علي رأيا معقولا وستجدني الى الموافقة أسرع مما تتوقع.

هز راهي يديه وشبك أصابعهما في حضنه، مادا بصره الى الأرض الفضاء التي اكتست مبكرا بالعشب والنباتات زاهية الخضرة ثم أخذ ينظر الى الماعز الذي توزع أمام البيت وحوله يقتات بهدوء وبين الحين والآخر يقطع رتابة المنظر سخل عابث ويروح قافزا هنا وهناك

وهو يثغو بنزق، أو ينبح الكلب ذيب على شيء في الأفق لا يراه غيره فيما يكتفي طوق بالنوم ملتما على نفسه تحت شجيرة أثل.

نظر شداد الى راهي نظرة متفحصة استقرت أخيرا على الخنجر ذي القبضة فضية اللون المزخرفة بخطوط رفيعة ترسم شكل وردة. سأله مبتسما:

-أين فرسك؟

رفع راهي يديه وباعد ما بينهما ثم أعادهما الى حضنه:

-بعتها... وماذا أفعل كلما أجيء راكبا فرسا أو بعيرا تقولون قتل صاحبه وسلبه.

ضحك شداد فيما حل راهي حزامه وسحب الخنجر منه ليقدمه الى شداد. كان القراب فضي اللون أيضا ومزينا بدائرة من الشذر الناعم فيروزي اللون والحزام مزينا بشذرات فيروزية أيضا ولكن أكبر حجما. تمتم شداد مضيقا عينيه وهو يقلب الخنجر بين يديه ويستله من قرابه ويتأمله:

-جديد يلمع... وحاد الشفرة. لا بد أنه غالي الثمن. بكم؟

أجاب بابتسامة فرح لأنه لاحظ اعجاب شداد بالخنجر:

-بدينار بالتمام والكمال لا ينقص آنه.

أراد شداد، وهو راغب أن يسلي نفسه أكثر من رغبته سرد ذكريات على مسمع راهي، أن يحكي له عن خنجر جميل أيضا غنمه في شبابه من هندي أثناء عملية سطو على معسكر الهنيدي عندما كان الهنود قد دخلوا للتو أرض الرستمية ونصبوا خيامهم قرب نهر ديالى فعبرت سباحةً مجموعة من شباب عشائر شتى جمعتهم حياة التجوال وتحدي المخاطر، حياة من النوع قصير الأمد تفتقر الى الدوام ما دامت تفتقر أصلا الى الاستقرار ولا تشبه أيا من أنماط الحياة المعروفة ذات الجذور في الأرض. عبروا تحت جنح الظلام في ليلة عاصفة مترِبة وتسللوا الى مشجب السلاح في خيمة عرف مكانها أحدهم بالصدفة من حديث صاحب مواش نزلت الوحدة قرب بيته وكان يذهب كل يوم الى المعسكر حاملا كمية من حليب الأبقار ليعطيها للجنود مجانا كسبا لودهم واتقاء لشرهم. وجد شداد الخنجر بقرابه وحزامه على المنضدة في المشجب، وفيما اهتم أحدهم بأمر مأمور المشجب فأنهاه بضربة واحدة من قضيب حديدي وهو نائم في فراشه حمل الآخرون ما يستطيعون، ليس أكثر من بندقيتين لكل واحد ومسدس إذا وجد، وانطلقوا عائدين مع بداية زخات المطر. عندما أكمل كل واحد منهم ربط ما يحمل بجسمه لكي لا يفقده

أثناء العبور نفخوا قِرَبَهم ونزلوا في النهر وتركوا التيار يجرفهم مع الضفة الى نهر دجلة ومن هناك عبروا الى الضفة الغربية لدجلة لكنهم حتى قبل أن يصلوا مصب ديالى في دجلة كان بإمكانهم أن يسمعوا الهرج والمرج الذي ساد المعسكر وكان الماء السريع يحمل لهم على صفحته الموارة أصداء الصياح وإطلاق الرصاص في الجو.

كان شداد قد بدأ يتحسس على لسانه حلاوة الرغبة في الحكي وفي صدره انشراحا للتذكر عندما ثار ذيب نابحا وانطلق نحو رجل مقبل فيما نبح طوق من مكانه نباحا واهنا ولم يقم بأكثر من التفاتة بسيطة ثم عاد ليوسد خطمه يديه ويتحول نباحه الى هرير متقطع. كان القادم أحد الرعاة سلم وجلس على بساط قصير ممدود عند طرف فراش شداد حيث الوسائد فقام راهي وجلب له بالطاس ماء شرب منه. قدم شداد كيس التبغ له فأخذ الرجل يلف سيجارة فيما كان شداد يعيد كلمات الترحيب به وسأله:

-كيف هي الأحوال عندكم في الشويحة يا صعب؟

-بخير إذا أنتم بخير.

-هل تجد الأباعر هناك ما يكفيها من العشب؟

-خير من الله، ولكن لا بد من أن تحصل على بعض من منقوع الشعير.

-نعم هذا صحيح. سأرسل اليك ما تحتاجه من مال لشراء الشعير بأسرع وقت.

-هذا كل شيء يا أبا صبر.

-على الخير والبركة.

وتجاذبا أطراف الحديث عن بعض شؤون المنطقة واحتياجات الرعاة، ثم حين رأى أن الرجل يتأهب للنهوض أمسكه من رسغه الأيسر قائلا:

-أتدخل بيتي وقت الغداء وتغادر قبل أن نتغدى؟ سيجهز الغداء بعد قليل..

اعتذر الرجل وهو يبتسم بارتباك خجول:

-لا بأس أبا صبر. عساكم سالمين. هذا بيتنا ولا حاجة لأن نجربكم. علي أن أمر على بيوت أخرى لأمور عاجلة.

-حسن... لا بد إذاً أن تأخذ معك شيئا من طعامنا. خذ لك وللجماعة عددا من أرغفة خبز الصاج واللحم المسلوق.

فيما تمشى شداد وراهي مع صعب الى خارج البيت ضمت ضحوة صوتها الى صوت شداد المتأسف لانصراف الرجل دون أن يتناول حتى شاي أو قهوة وهي تحمل لفة الخبز وكيس اللحم المملح والذي انزلته من حيث علقته بالأمس على عمود ركن البيت وناولته للرجل، ومضى في سبيله.

طوال هذا الوقت كان راهي يتأمل الرجل. كان يرتدي دشداشة من النسيج الصوفي البني السميك ويتحزم على حربة بحزام أسود ويرتدي حذاء من النسيج القطني كحذاء راهي ولكنه بني أيضا، بدا الشاب مرتبا ونظيفا كراعٍ يقضي نهاراته ولياليه في البرية بين الأباعر، لم يكن جميلا بمعنى الجمال المتعارف عليه ولكنه على قدر من الجاذبية، مظهره مريح، حلو اللسان، ومن النوع الذي تميل اليه النساء... هكذا فكر راهي والتفت غير مرة الى إبنتي عمته ليرى إن كانتا ترمقانه ومن منهما التي قد تكون اكثر اهتماما به. فاجأهما مرة أو مرتين تختلسان النظر وهما تتشاغلان في ظل جانب الخيمة بتكديس الشوك. عندما انصرف الراعي وعاد شداد الى مجلسه لم يجلس معه راهي بل شمر طرفي غترته خلف ظهره وتمشى نحو لمعة التي رأت الفرصة مناسبة بعد ذهاب الراعي لتباشر، دون خشية من وجود

غريب يتطلع اليها، بحفر حفرة في الأرض قرب النهر تكون تنورا للخبز وتجلب بعدها من النهر طينا تضعه على جوانب الحفرة كملاط ثم تشعل نارا بداخلها الى أن يتوهج الطين احمرارا ويصبح مفخورا ويكون التنور جاهزا للخبز بعد ذلك على حرارة الجمر.

-هلا تتركيني أحفر بدلا عنك؟

رفعت رأسها نحوه ضاحكة:

-لا..... هي حفرة أتسلى بها. إذا بقيت للغد سيكون لك عمل هنا.

-ما هو؟

-تحفر بئر.

-بئر؟

ضحكت فعرف أنها تمزح. كان قد اقترب منها قاصدا أول الأمر أن تنظر مليا الى ثوبه البهار الربيعي الرصاصي والفروة القصيرة بلا ردن، لكنه انتبه الى العران والخزامة الذهبيتين في أنفها ولاحظ لأول مرة ما تحت الثوب العتيق الطويل الفضفاض الذي ارتدته فوق ثوبها الجديد النظيف لكي يحفظه من أن يتسخ وهي تشتغل. نظر الى ما ظهر من اطراف الثوب الجديد عند جيب الرقبة وذيل

الثوب، وانقبضت نفسه، زهور حمراء على خلفية زرقاء، بدا له أن ثوبا بهذه الألوان لا ترتديه ابنة عمة له إلا أن يكون جزء من جهاز عرس وما يقوي استنتاجه قطعتا الذهب. قرفص لينظر عن قرب أكثر. تلاشت الإبتسامة من شفتي لمعة إذ أدركت ما يدور في رأس راهي، ليس ما يدور في رأسه بالضبط بل مشاعره، عرفت أنه حزر أنها مخطوبة وعرفت ما يعتمل في قلبه من حرقة تتفاعل وتتقد كلما ازداد اقترابا من اليقين. الحقيقة أنها لم تأخذ يوما على محمل الجد رغبته في الزواج منها أو من أخت لها فهي لا يمكنها تصوره زوجا بل ابن خال فقط ولعل أقرب تفسير عندها لرغبته الملحة في الزواج من ابنة عمته هو نكاية بأبيها، الحصول منه على شيء عزيز عليه وليس أعز على أبيها من إحدى بناته. إن شداد قد خبر راهي وعرفه محبا للتجوال وارتياد ما يجلب الذم والشبهات فهو ليس برجل بيت. لطالما رأت رغبة راهي هذه شيئا مبالغا فيه ولا داعي له، نزوة يزيدها أبوها قوة بوضعه له موضع الإدانة أو التشكيك على الأقل. نظرتها الى راهي ورؤيتها لملامحه كيف تعكرت حتى أن شفتيه قد مال لونهما الى سواد أقنعتها بأنها يجب أن تتحدث مع أمها لتضع نهاية لهذه الاستهانة براهي من لدن أبيها إن لم تكن هي عداوة تستعر كالجمر تحت

الرماد، يجب ان تحدثه بهذا الشأن وتطلب منه أن يكف عن إشعار راهي بأنه لا يستحق الاحترام. كانت على وشك أن تطلب منه أن يقوم ويبتعد عنها لتتفرغ لشغلها مع ابتسامة تقصد منها الاسترضاء لكنه بادرها بالسؤال الذي تخشاه:

-سيزوجك؟

أطرقت وهي تحفر وهزت رأسها بالإيجاب

-من أين؟

تمتمت بارتباك

-من هنا؟

-من؟

-ابن صديق قديم لأبي؟

لم تكن تريد أن تتحدث في الأمر أكثر إذ تعرف أن كل كلمة تزيد من ألمه.

انحرف راهي في جلسته ناظرا الى الخلف نحو شداد، نظر اليه طويلا، وفيما كان ينظر كانت لمعة تزداد اضطرابا، وحين نهض تنفست الصعداء. لم يذهب الى البيت بل توجه نحو ضحوة وهو يقول لشداد:

-خالي.... لدي صديق أريد زيارته... في أمان الله.
-في أمان الله... أين يسكن هذا الصديق؟
-في عويريج... ولكن قبل ذلك سأمر بمعارف لي هنا.
كان في صوت راهي غصة يغالبها وهو يتحدث. تصدت له عمته بصوت موبخ:
-أين مولّي... إبق للغداء.
ضحك ضحكة محشرجة وقال:
-لا تقلقي.. سأعود عاجلا وأبقى هنا حتى تملوا مني. أما الآن فلدي موعد وتأخرت إذ كان يجب أن أكون عند صديقي الآن.
بعد أن أصبح راهي بعيدا جلست ضحوة قرب شداد وبيدها قطعة قماش من القطع التي فضلت بعد خياطة ثلاثة أثواب للمعة عند الخياط في المحمودية كجزء من جهازها فأصرت ضحوة على أن لا تترك الفضْلات له وأخذتها منه وهو ينظر اليها شزرا، وفي البيت خاطت القطع بيدها لتكون وسائد تحشوها من الصوف أو القطن الذي تحافظ عليه وتضيف اليه كلما تسنى لها الحصول على المزيد الى أن تجتمع لها كمية تصلح لحياكتها قطعة فراش أو ملابس. تركت

جانبا القطعة الملونة بنقاط بيض على خلفية صفراء والتفتت الى شداد:

-يا أبا صبر... رفقا براهي.. أنت تزعجه دائما. لقد ذهب ووجهه مثل الكركم.

قال شداد الذي كان يتوقع دائما أن ضحوة ستكلمه بهذا الكلام يوما. ابتسم محاولا أن يهون الأمر:

-وماذا فعلت له يا امرأة؟.. لقد استقبلته وتحدثت معه. هو ذهب الى لمعة وربما عرف شيئا ما...

وابتسم

-أنت تشعره دائما بأنه لا قدر له عندك....

قال وهو يتمدد جاعلا الوسائد تحت إبطه:

-ما يكون خاطرك إلا طيب... سأرقص وأغني له في المرة القادمة.

=هاي هي.... إذا لم يعجبك الحديث تسخر وتمزح..

ثم قطبت وهي تضيف:

-أنا أحدثك بجد.... عامل الولد بشيء من اللطف!

هز رأسه وهو ينقلب على ظهره.

فيما كانت لمعة تستمع الى حديثهما حمدت الله لأنها لم تضطر الى التحدث الى أمها بشأن راهي.

*

جاءه الراعي نفسه في اليوم التالي ليخبره أن الرجل الذي كان ضيفا عنده سرق عددا من أباعره وتوجه بها شرقا الى جهة ديالى ربما، ولذلك فكر الراعي أن من المناسب إخباره قبل التصرف.

-كيف حدث هذا؟

أجاب الراعي:

-بقي معنا سحابة النهار يساعدنا وقال إنك أرسلته للمساعدة.

عادة ما يبقى راعيان مستيقظين ليلا يجوسان بين الجمال ولكن الرجل الذي ذهب ظنُّ شداد الى أنه هو السارق لا يمنعه حارسان من تحين الفرصة لسرقة عدد من الجمال والتسلل بها خصوصا إذا كان عدد الجمال كثيرا والمساحة التي على الحارسين تغطيتها واسعة.

سأل شداد مفاجئا الراعي:

-أصدقني القول يا بُني ولا عليك...؟

أطرق الراعي مرتبكا وتردد قليلا في الإجابة:

-أنا لا مانع لدي أن تحملني المسؤولية وتطالبني بالعوض ولكن صدقني لا يد لي في كل هذا فقد تطوع للحراسة ليلا بدل أحدهم وقبلوا، وأنا أبرئ الحارس الآخر وأظنه خدعه وفعل فعلته في غفلة منه... ولك أن تقرر ما تشاء.

كان شداد يمسك ببعض خيوط البساط الذي يجلس عليه. ظل هنيهة يفرك بالخيوط بين أصابعه وهو مطرق بعينيه المثبتتين الى الفراغ الرمادي أمامه. كان بإمكانه أن يقول بأن أباعره عهدة لديهم ولا يقبل عذرا وحتى لو أنه شاهد الرجل عنده كان عليه أن يعود به اليه ويأخذ الموافقة منه، هو شداد، مباشرة. لكنه تنهد وسأل:

-صفه لي....

ثم أضاف حين رأى الراعي ناظرا اليه ببلاهة كأنه لم يفهم السؤال:

-....الرجل الذي تقول أنه سرقني.

عندها أجاب الرجل بسرعة:

-الشاب الذي كان عندك بالأمس.

أعاد شداد السؤال:

-مع ذلك صفه لي.

أطرق الرجل وقال بتردد:

-شاب مربوع القامة جميل الوجه أكحل العينين أشقر الشعر وله ضفيرتان تنسدلان على صدره.....

أشار له شداد بالسكوت:

- كم عدد الأباعر التي تقول أنها سرقت؟

-خمسة.

-عد الى عملك! لم يسرقها!

ظل الراعي ينظر اليه وقد أخرسته المفاجأة:

-عد الى عملك وانس الموضوع!

ظل شداد يفكر بعد انصراف الراعي متأسفا لأن الزمن قد أذاقه مرارة الذل والهوان حتى احتقره الأقربون وتجرأوا عليه، وها هو راهي ابن أخ زوجته ضحوة ينتقم منه لأنه لم يزوجه لمعة، ولو كان لا يزال في عافيته وقوته لفكر راهي وغيره ألف مرة قبل أن يعبّر ولو بالنظر عن استيائه، مجرد نظرة استياء، ولو كان لا يزال في قوته لما انقضى نهار هذا اليوم وراهي لا يزال حرا طليقا لم يدركه شداد، ولكن أنى له بإدراك راهي وهو شبه مقعد كليل البصر.

لم تكن ضحوة حاضرة هذا الحديث فقد ذهبت تبحث عمن يبيعها حمارا من أهل المنطقة فطلب أحدهم معزى وتيسا شاميين مقابل

حمار لديه يكاد يكون بضخامة بغل فوافقت واقتادت اليه المعزى الشقراء والتيس الأبيض فأعطاها البغل مع جَلّته وحبله وسلسلته، لا بل وزادها، حين حكت له عن السرقة، بأن أعطاها من آنية بيته صحنين وإبريقا وشايا وسكرا وبعض الأقداح فعادت مسرورة تستعجل الوصول لتعد الشاي وهي لا تعلم بأن بانتظارها خبر سرقة ثانية:

-ابن أخيك سرقنا.... سرق من جمالنا.

قال لها شداد هذه الكلمات بجفاف وتركها دون أن يوضح لها. جلست في ركن من البيت وقد خيم عليها الوجوم وراحت في تفكير عميق. فجأة هبت واقفة. توجس شداد من وقفتها شرا فعاجلها بالسؤال:

-الى أين؟

-سألحق على ظهر هذا الحمار براهي الكلب!

-اجلسي يا امرأة! يكفينا ما عانينا!

ثم أكمل مبتسما ابتسامة ساخرة:

-بيني وبينك. أنا، بعد التفكر، حمدت الله على ما فعل.

-تحمد الله لأن هذا العاق سرقك؟!

-نعم... ليس من عادة راهي أن ينتقم هذا الانتقام المتواضع المتسامح... لكن الله صرفه عما هو أشد إيلاما لنا.

وأضاف بعد أن تلفت حوله بعينيه العمشاوين ليتأكد من أن ليرة ليست قريبة تستمع الى ما يقول:

-بإمكانه، متى سنحت له الفرصة، أن يخطف ابنتك الصغيرة ليتزوجها عنوة ويجللنا بالعار مدى الحياة.... فليذهب بهذه الأباعر الخمسة يطفئ بها شره ويبتعد عنا.

بعد أن فكرت هي أيضا رأت في كلام زوجها الشيخ منطقا سليما وانصرفت الى إشعال النار لإعداد الشاي وهي تحس بغصة في صدرها وعبرة تحبس دمعتها فبرغم أنها ناقمة على الدوام على زوجها لبخله ولكنه منذ أن أخذ يضعف أخذت الشفقة عليه تتسلل الى قلبها إذ فضلا عن كونه شجاعا تفخر بشجاعته فهو نجيب لم يزن في حياته ولم يظلم أو يسرق فقيرا ويتحلى بالحكمة في كثير من الأمور ولا يستحق ما جرى له طوال السنوات الست الماضية من عنت الحياة.

لم يخرج شداد للرعي بعد الغداء بل غطى نفسه بالفروة على فراش صوفي سميك وقد لف رأسه بغترته لا يبين منها سوى عينيه وتوسد وسادة كسوتها من نسيج الصوف ونام حتى غياب الشمس على المَدّة

التي فرشت ضحوة تحتها طبقة من الشوك والعاقول لترفع الفراش عن الأرض الرطبة. في هذه الأثناء كانت ضحوة تلتفت بين الحين والآخر لتتأكد من وجود ليرة التي كانت تلهو بهدوء مع جدْيين صغيرين في الركن القصي للبيت . لقد أقلقها كلام زوجها المعقول عن راهي وهي تعرف ابن أخيها جيدا لدرجة لا تستبعد معها أن يعود في هذا اليوم بالذات ليفعل ما أصبحت تخشاه حقا ويشغل بالها طوال الوقت وليس بمستبعد من راهي أن تلتفت فتراه خلفها بابتسامته ماكرة الجمال وقد عاد بإكذوبة تبرئ ساحته وتلقي باللوم على غيره كأن يقول أنه ليس السارق وقد تعقب سارقي الجمال حين أحس بهم ولكنه لم يدركهم وضيع أثرهم في ظلمة الليل. كلام لا يسهل تقبله ولكن حضور راهي بمكره الإبليسي وتزويقه الكلام يجعله مقبولا.

في اليوم التالي كانت ضحوة قد قبلت تماما بفكرة إنهاء نمط حياة لم تعد هي وزوجها يطيقانه وقنعت بالالتحاق مع ابنتها بعشيرة زوجها.

١١

عندما علم صحين بسرقة جمال من شداد جاءه عارضا عليه المساعدة بتعقب السارق ولكن شداد بدلا من أن يوافق أو يرفض فاجأ صحين بسؤال:

-من قال لك أني سرقت؟

نظر صحين اليه مندهشا:

-يا شداد... الخبر منتشر في الديرة كلها.

-لا عليك ممن ينقلون أخبارا دون تثبت من صحة الخبر.

-ألم يسرقك شخص كان ضيفا عندك إذن؟

- كلا.... الذي تقصده هو ابن أخي وأنا قلت له أن يأخذ هذه الجمال الى أهله ولكنه أحيانا يكون أهوجا فلم يقل للرعاة أني أمرته بأخذها.

أشار صحين بيديه إشارة التسليم:

-أنت وما تشاء....

عندما انصرف صحين جاءت ضحوة التي كانت وليرة جالستين في المحرم تسمعان الحديث الذي دار بين الرجلين.

-لماذا لم تكلفه بإعادة المسروق الينا؟

-أسكتي يا امرأة! متى يصير في رأسك هذا عقل؟
-وما هو الخطأ في قولي؟
وأشار بأصابع يده الى رأسه ضاربا بأطرافها عليه مرات كأنه يقول لها "فتحي دماغك"
- أتقبلين أن يطارد ابن أخيك، نسيبي، فيقبض عليه أو ربما يقتله أحدهم. هذه المساعدة هي والإهانة لنا سواء.
نظر شداد الى ضحوة التي هزت رأسها موافقة
-إي والله فهمت قصدك يا أبا صبر... هذا زمن رديء، صعب على أمثالنا في هذه السن.
تمدد متدثرا بفروته وهو يشعر بأنه بذل في هذه المحادثة القصيرة مع صحين جهدا نفسيا كبيرا أرهقه وجعله يميل الى أخذ قسط من النوم.
*

بعد أيام قليلة من انتقال لمعة الى بيت زوجها أصبح شداد وجها لوجه مع حقيقة أن ما كانت في عينه حياة إن هي إلا سراب، وأن ما كانت بنظره أو نظر غيره مآثر ليست سوى أضغاث أحلام مرت دون أن تخلف في الدنيا أثرا ما دام لم يخلف بعده ولدا يدل على أنه

كان يوما موجودا ويحفظ له امتدادا في الوجود متمثلا فيه، هو ابنه، وهذا أخوه الأصغر عواد جاء راكبا مهرا رماديا، وهو يعرف ما يريد. ترجل عن مهره وتقدم بخطوات هي أشبه بخطوات شداد في أيام عافيته ونشاطه، حتى هيأته، الناظر اليه كأنه ينظر الى شداد عندما كان بعمر أخيه عواد، نفس القامة المديدة، ولكنه أكثر امتلاء، وبشرته حنطية.

-لقد ذهبت الى الأخيضر بحثا عنكم. قالوا لي أنكم انحدرتم فأخذت أسأل عنكم حتى وجدتكم أخيرا.

رحب به شداد ونادى على ضحوة أن تحضر لبنا خاثرا وخبزا حارا تصبيرة الى أن يجهز الطعام.

لم يؤجل عواد ذكر سبب زيارته طويلا. في اليوم التالي قال له:

-جئت آخذك وأهلك الى ديرتنا يا أخي..

أطرق شداد رأسه متأملا. لو كان عواد قال له هذا القول قبل سنوات لرد عليه ردا قاسيا ولكنه الآن ساكت يفكر تفكير العاجز الذي يوشك أن يسلم أمره الى غيره..

-لقد كبرت يا أخي ونخشى أن يصيبك مكروه وأنت بعيد....

قال شداد في نفسه "نعم ولكنك نسيت أن تقول أيضا أنكم تخشون أن تذهب هذا الأباعر وهذا الماعز من أيديكم".

-تعال معي معززا مكرما أنت وضحوة ودعوا رعي حلالكم والعناية به علينا.

قال شداد مبتسما بأسى:

-تبدو في عجلة من أمرك يا عواد. نحن بدو، لدينا اليوم والشهر سواء. فارتح الآن عندنا بضعة أيام وبعدها الله يسهل.

-يقولون أنهم سيوقفون عمل العبّارة التي تعمل على دجلة قرب ديرتنا ليبدأوا ببناء جسر وإذا تأخرنا فسيكون وصولنا الى أهلنا صعبا جدا.

تبادل شداد وضحوة النظرات. أصبحت صورة الآتي من الأيام واضحة لديها... سيأخذ أشقاء شداد الأباعر والماعز وتتزوج ليرة في عشيرة أبيها، وحين يموت تبقى ضحوة تتنقل بين بيوت أزواج بناتها، ومن يدري قد تعيش حياة في ضياعها أشد ضياعا من أم زوجة جليّان. أما ليرة فقد انقبضت نفسها وهي تنظر الى عمها الذي لا ينفك يحذرها من أن تفعل هذا أو ذاك من الأمور أو تذهب من هنا أو من هناك عندما كان أبوها يقصد العشيرة ويقضي وقتا نازلا

في عربها. تفكر ليرة بالزمن السعيد عندما لم تكن عائلتها تستقر في مكان إلا أياما معدودات ثم تنتقل الى مكان آخر طلبا للمرعى فتكون أيامها عبارة عن رعي غير بعيد عن أهلها، رعي هو أقرب الى اللهو منه الى العمل، إذ تتسابق مع صغار الماعز على التلال المعشبة عند تخوم جزيرة غرب العراق، أو ينزلون من الجزيرة للعمل في نقل الحنطة والشعير من الحقول و التمر من البساتين و الملح من الممالح فتكون لليرة فرصة أن تحصل على أشياء وملابس جميلة أو مأكولات لذيذة من أطعمة الحضر يشتريها أبوها كلما حصل على بضعة دراهم. كل هذا سيكون مجرد أحاديث ترويها لأولادها وأحفادها.

أجال عواد نظره في البيت وحين لم ير غير ضحوة وليرة سأل:

-لم أر لمعة.... أين هي؟

توقعت ضحوة أن يتردد شداد في الجواب على سؤال عواد، ولكنه أجاب سريعا

-تزوجت لمعة منذ أيام.... زوجتها لإبن صديق قديم من خيرة الأصدقاء.

نظر عواد اليه مبتسما ابتسامة لا تخفي استياءه:

-ألا سألتنا رأينا أو أبلغتنا على الأقل؟

-ومن أكلفه بتبليغكم؟ لا أحد عندي يذهب اليكم.
-هم ملزمون أن يرسلوا أحدا الينا فنحضر الى هنا.
-على كل حال. حكمت القسمة هكذا.
-لطالما كنت يا أخي غير عابئ برأينا في أي أمر.
-دعك الآن من هذا ومما مضى وانقضى. لو بقيت ما يكفي من الوقت نذهب أنا وأنت لزيارة أنسبائنا الجدد وسترى أحوالهم. أرض واسعة ولديهم بستان قرب المحمودية وشياه وماعز. لكي تطمئن الى أن ابنة أخيك في نعيم.
قال عواد:
-لا يمكنني البقاء طويلا. أريد أن أسمع منك أنك موافق.
أطرق شداد مليا ثم رفع رأسه وقال:
-الأباعر لي يمكنكم أن تجعلوها مع حلالكم وتنتفعوا بما تنتج، ولكن الحمار والماعز لضحوة وليرة هما اللتان تتصرفان بها.
نظرت ضحوة اليه نظرة امتنان والتفتت الى عواد الذي سأل:
-وهل تريد ضحوة أن تذهب الى أهلها أم ماذا؟
قالت بحزم:
-أينما يكون شداد أكون. وهل طلقني شداد لأذهب الى أهلي؟

عندها وضع شداد شروطه:

-شرطي أن ترعوننا وتوفرون لنا حاجاتنا إن عجزنا عن إعانة أنفسنا.

-لك ذلك.

-وإذا مت يغسلني إمام جامع ويصلي علي وأدفن دفنا لائقا في مقبرة عند مرقد إمام.

-لك ذلك.

كادت العبرة أن تخنقه وتمنعه من أن يقول:

-ولا تتركوا بناتي وأمهم من بعدي بل تتفقدوهن وترعون شئونهن بما يدره عليكم حلالي.

-لك ذلك.

-هذا كل شيء.

وقام عواد:

-سأذهب الى صديق ليسوق هو وابنه معنا الحلال غدا فأنت كما يبدو لن تقوى على ذلك.

-لماذا لا نطلب من أولاد نسيبنا أن يسوقوا معك الحلال وتكون فرصة في الوقت نفسه للتعرف عليهم وليعرفوا هم أين منزل عربنا؟

- ليس مناسبا أن نطلب منهم هذه الخدمة وأنا لم أتعرف عليهم قبلا...

وأضاف:

-لا تقلق بشأنهم. عندما تستقر عندنا سنبعث لهم دعوة لزيارتنا باسمك.

تمتم شداد بوهن:

-لا أدري إن كنت سأتحمل هذه الرحلة، لا بل لا أدري إن كنت سأقوى على ركوب بعير غدا.

سأل عواد:

-وما العمل إذن؟ لا يمكننا التأخر وإلا توجب علينا البقاء هنا.

-ابنوا لي خربوشا واتركوني وامضوا. توجد ابنتي لمعة بالقرب مني وسألحق بكم حين تتحسن صحتي.

قالت ضحوة:

-لن أترك شداد. سأبقى معه.

وأيدتها ليرة:

-وأنا لن أترك أبي.

تمشى عواد قليلا أمام البيت ثم توقف والتفت نحوهم:

-الحل هو أن أترك لكم الحمار وبعير وما تحتاجونه وأسوق الباقي وانتظركم عند الأهل يومين أو ثلاثة فإذا لم تلحقوا بي أعود اليكم لأرى كيف ندبر الأمر.

عندما انصرف تمتم شداد بصوت مسموع وهو يعدل وسادته ويضع رأسه عليها "كم هو متعجل أخي الصغير لسوق هذا الحلال"؟ ابتسم باستسلام وهو يركز بصره على الاهتزاز الخفيف لأشباح شجيرات الشوك التي أمامه على النهر، وكلبه طوق، الهرم هو أيضا، يدور ببطء بينها وحولها، شيء ما أجفله، ثم بعد سكون حذر مد خطمه يتشمم في شجيرة سوس، فكر شداد، كل شيء مختلط، ما عاد التمييز مهما، كلبه هذا مثله ينتظر النهاية، لكنه يقضي أيامه الأخيرة بالتسكع والنوم في الشمس، حتى أنه لم يعد يسمعه ينبح إلا قليلا، نباحا غاصا محشرجا، ينظر بعيون يحوم حولها الذباب الى شيء ما يقترب ويراوغه أحيانا ولكنه لا يلبث أن ينطرح له. شداد... يا شداد... حياتك الماضية كلها لم تعد تساوي أكثر من شرط لا تضمن أن يُوفّى به، كل هذا الذي شقيت عمرك كله في جمعه وتحصيله لا يساوي أكثر من قبر "لائق" تمناه خيالك، لم تعرف قبلا أن الخاسر يشترط لخسارته، لم تسمع خاسرا يفرض أمنيات، أهذا ما يسمونه

الضحك على النفس وكنت تظن في الغابر من عمرك أنك بمنأى عنه؟ وفي الآخر فإن ما سيحدث هو خارج إرادتك، شئت أم أبيت، فضع شروطك حيث تضع رأسك، تحت وسادتك الخشنة هذه.

رجع عواد عصرا مع الصديق وابنه. ذهب الى المرعى وعاد بالأباعر ومعه الراعي الذي جاء للتأكد من أن شداد هو الذي أمر بسوقها اليه وأعطاه شداد قعوداً من الأباعر. بدأت التحضيرات لحزم ما سيوضع غدا على ظهر الجمال عدا ما سيبقى لحاجة العائلة.

في الصباح ظل شداد ممددا متدثرا بفروته في فراشه وليرة جالسة عند رأسه، ولم يتحرك من مكانه حتى عندما سمع صوت صحين الذي جاء عندما علم بأمر الرحيل وسلم على عواد وتمنى لو كان لديه الوقت لضيافته ثم ودعه متمنيا له سلامة الوصول. كان شداد ينظر وهو منطرح على جنبه وحين سمع الرغاء والثغاء الذي يصاحب تحرك الأباعر والماعز للمسير. سأل ليرة بصوت ضعيف مرتج:

-هل عواد يركب القودة أم يمتطي فرسه؟

-يمتطي فرسه يبُهْ.

سكت هنيهة ثم عاد يسأل:

-والبعير العود؟

-يسير خلف أمه القودة يبُهْ.
- كل الأباعر معهم ولم ينسوا شيئا؟
- كلها يبه، ما عدا البعير الأشعل والحمار بقيا هنا معنا.
سكت ثم قال كأنه تذكر:
-والحيزة؟
-الحيزة ماتت يبه..... أنسيت؟
هز رأسه وقد بدا عليه الذهول:
-ماتت... ماتت.....صحيح...
ابتلع ريقه وبلل شفتيه بلسانه قبل أن يسأل:
-والكلبان؟ هل ترين الكلبين معهم؟
نظرت الى الظعن المبتعد وأجابت:
-أرى ذيب فقط يذهب الى الظعن ويعود نحونا لا يدري في أي اتجاه يسير... أما طوق فلا أدري أين.
تمتم:
-هذا هو كل شيء.... كل شيء.
ثم بعد أن تمتم بكلمات غير مسموعة:
-..... أظن أني سأنام.

نبذة عن المؤلف



جودت جالي من مواليد ١٩٥١ في بغداد بقرية الرستمية. مارس هواية الرسم والتمثيل والكتابة للمسرح في النشاطات الطلابية والشبابية وكتب الشعر ونشره وحاز على العديد من الجوائز في المهرجانات الشبابية والطلابية وجائزة تقديرية من إذاعة صوت الجماهير. له قصائد وقصص ومقالات منشورة منذ أوائل السبعينيات. عضو اتحاد الأدباء وله الكتب الصادرة التالية:

عن دار الشؤون الثقافية

*(نصوص عن بول ريكور) ٢٠١٢ مقالات مترجمة عن فكر ريكور بقلم ريكور وكتّاب آخرين.

*(في المنهج الأخلاقي للعمل السينمائي) ٢٠١٦ مقالات مترجمة لعدة كُتّاب.

وعن دار ضفاف:

*(التودد الى الزوجة) ٢٠١٨ مختارات قصصية مما ترجمه خلال ثلاثين عاما.

*(فك الحزن) ٢٠١٧ مجموعة قصصية.

*(ماروأه العجوز حكمان عن الفتى الجميل جوهر) ٢٠١٨ مجموعة قصصية.

*(جهات السينما الأربع) ٢٠١٧ مقالات في أفلام سينمائية.

*(الهجاء السياسي في الشعر العراقي) ٢٠١٧ مقالات في الأدب والفن والثقافة عموما.

*(لا وقت لهديل الحمام) ٢٠١٩ رواية قصيرة.

*(نقطة تبادل التوابيت) ٢٠٢١ مختارات قصصية.

وعن دار المأمون:

*(حرب المهرجين) ٢٠١٩ مختارات قصصية لكتّاب عالميين ، وله كتب منشورة بصيغة pdf .

وصلت قصته (ممشى الكالبتوس) الى القائمة القصيرة في (مسابقة سافرة جميل حافظ للقصة القصيرة دورة ٢٠١٧) التي

أقامها الإتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق، ونشرت في الكتّاب الصادر بإسم المسابقة. فازت قصته (شامة سوداء ونمنم أبيض) بالمركز الثاني في مسابقة القصة الرومانسية التي أقامها ملتقى السرد/ ٢٠٢٠ دورة القاص أحمد خلف. حصل على شهادة تكريمية من دار الحكمة وجمعية المترجمين ٢٠٢٠. منح شهادة تقديرية من اتحاد الادباء والكتّاب في العراق.

إيميل jali_jawdat@yahoo.com
فيسبوك جودت جالي